شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

المجلد ٥٧

جمادى الثانية ١٤٣٣هـ
مايو ٢٠١٢م

العدد التاسع

المجلد السابع والخمسون

* أدب الكلام في شريعة الإسلام
* حركة رسالة الإنسانية ودورها في مكافحة الطائفية والعنف
* النظام الإسلامي في معركة الأفكار
* أوّل ما تفقدون من دينكم
* بفضل القرآن الكريم : كانت علوم العربية
* العلم بين تعاليم الإسلام و واقع المسلمين
* ثقافة الحضارة بين الشرق والغرب !!

تصدرها: مؤسسة الصحافة والنشر، ص-ب-٩٣، لكناؤ- الهند
Albaas-el Islami,Majlis Sahafat-wa-Nashriyat, P.O.Box 93, Lucknow- 226007 (U.P. (India)
Fax : 0091-522-2741221,2741231, e-mail : thealbaas@nadwatululama.org

Fax :91-522-2741221 Regd. No. LW-NP/642012 To 2014 R. N. I. No. (UP

Monthly

AL-BAAS-EL-ISLAMI

Vol: 57, Issue: 08

إصدارات حديثة:

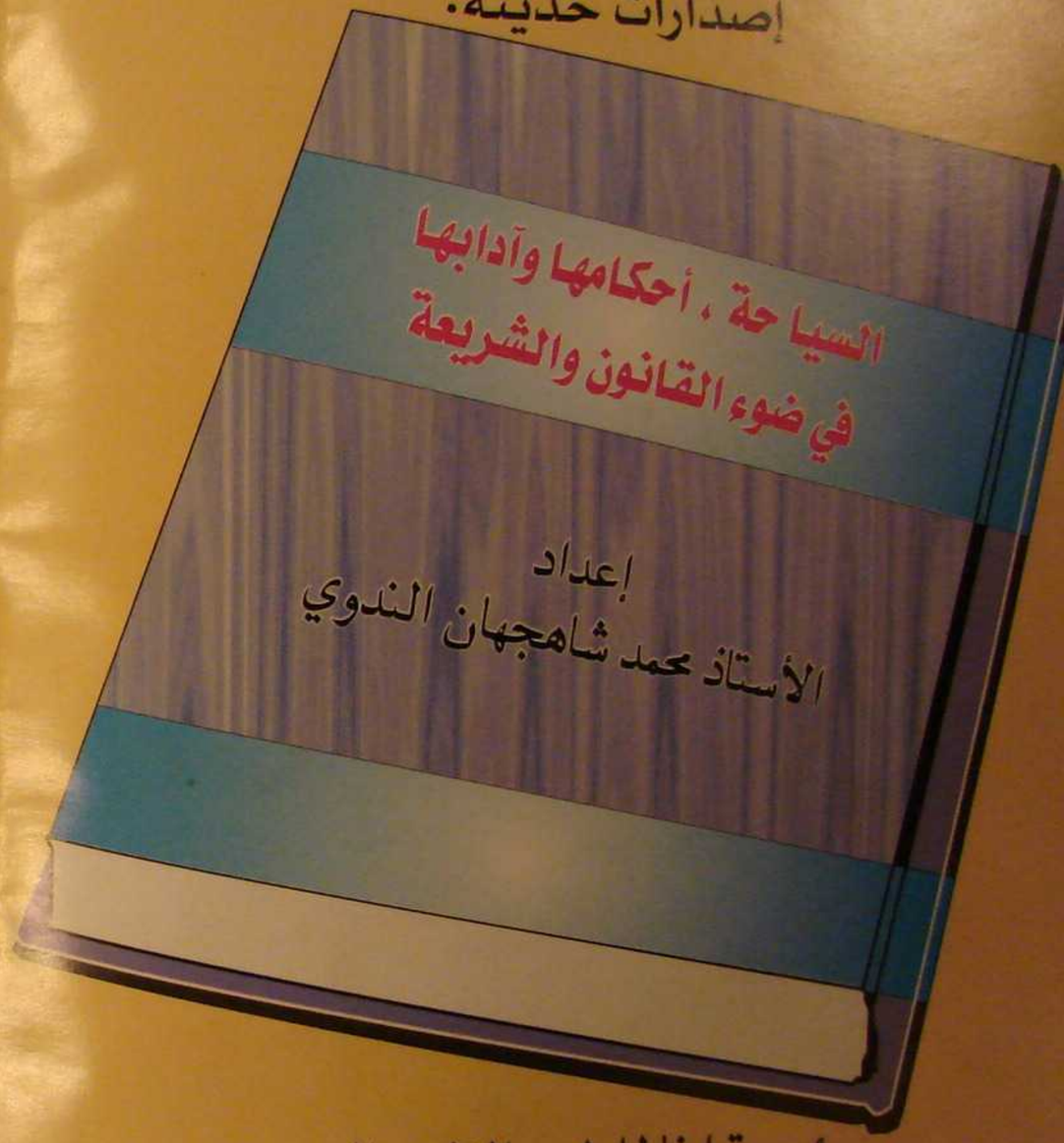

مؤسسة إيفا للطبع والنشر (الهند)
١٦٦-ايف،جوغابابي-ص-ب:٩٧٠٨
جامعة نغر ، نيو دلهي-١١٠٢٥

DESIGNED BY: HAMID, Mob: 9889654027.Lko

Printed & Published by ATHAR HUSAIN on behalf of Majlis-e-Sahafat-wa-Nashriyat (Dept.of Journalism & Publicity) at Azad Printing Press, Nazirabad Lucknow. U.P.
Editor : SAEED-AL-AZAMI-AL-NADWI

بسم الله الرحمن الرحيم

انشأها:
فقيد الدعوة الإسلامية
الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى
في عام: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

المجلد ٥٧

جمادى الثانية ١٤٣٣هـ - مايو ٢٠١٢م Vol.57 Issue.09 May 2012

المجلد السابع والخمسون
العدد التاسع

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

مساعدا التحرير:

محمد فرمان الندوي

محمد عبد الله الندوي

مسئول مكتب المجلة:

أختر سهيل

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال ، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير ، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف فى العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجديد ، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر ، وأن يزاد فيه ، ويحذف منه بحسب تطورات العصر ، وحاجات المسلمين وأحوالهم .

(سماحة العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى)

المراسلات
البعث الإسلامي
مؤسسة الصحافة والنشر
ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند) الفاكس: ٢٧٤١٢٢١-٢٧٤١٢٣١ - ٠٥٢٢
AL-BAAS-EL-ISLAMI
MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Taigor Marg, Lucknow.
Pin:226007-04 U. P. (India) Fax: 0522-2741221,2741231 E-mail:nadwa@sancharnet.in

العبقري العصامي!

العبقري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده، وما ينفع عملياً، وما ليس عليه طابع غرب أو شرق، إنما هي علوم تجريبية تطبيقية، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة، وفي عصر الثورة على الدين، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين، ومن النتائج الخاطئة، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون.

العبقري العصامي الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد، وإلى نفسه كمقلد وتلميذ دائم، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق، وكقرين تفوق في بعض العلوم المادية والمعاشية فيأخذ منه ما فاته من التجارب، ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تراث النبوة، ويعتقد أنه إن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب، ويحاول أن ينهج - بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق، وقوى الروحانية والمادية - ويضيف إلى المدارس الفكرية، والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع.

هذا هو العبقري العصامي الذي لا يزال مفقوداً في صفوف القادة والزعماء في العالم الإسلامي على كثرتهم وتنوعهم، وهذا هو العملاق حقاً الذي يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام.

(سماحة العلامة الندوي رحمه الله)

الاشتراكات السنوية
في الهند
تلفاظ ... ٣٠/٠٠روبية
ثمن النسخة ... ٣٠/٠٠روبية

في العالم العربي
وفي جميع دول العالم:
٥٠ دولاراً بالبريد الجوي
اما البريد العادي فهو ملغى بصفة رسمية

المجلة غير ملتزمة
بكل فكر ينشر فيها

عنوان المراسلات:

ترسل الاشتراكات على العنوان التالي:
باسم "البعث الإسلامي"
A/C 10563739886
(SBBJ LKO MAIN BRANCH)
مكتب البعث الإسلامي
(مؤسسة الصحافة والنشر)
ص.ب ٩٣، لكناؤ (الهند)

AL-BAAS-EL-ISLAMI
MAJLIS SAHAFAT WA NASHRIYAT
NADWATUL ULAMA P.O. BOX. 93,
LUCKNOW-226007-U.P.(INDIA)

محتويات العدد

الإفتتاحية :

ادب الكلام في شريعة الإسلام	سعيد الأعظمي الندوي	٣

التوجيه الإسلامي :

النظام الإسلامي في معركة الأفكار	فضيلة الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى	٨
أوّل ما تفقدون من دينكم	الدكتور محمد بن سعد الشويعر	١٣
بفضل القرآن الكريم : كانت علوم العربية	الدكتور محمد السيد علي بلاسي	١٧

الدعوة الإسلامية :

العلم بين تعاليم الإسلام و واقع المسلمين	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	٢١
أهمية مكارم الأخلاق في ترسيخ الفكر الدعوي	أ.د. عبد القادر سلامي	٢٧
ثقافة الحضارة بين الشرق والغرب !!	الأستاذ عبد العزيز بن صالح العسكر	٣٩
المال ومكانته في الإسلام	الدكتور خورشيد أشرف إقبال الندوي	٤٢

الفقه الإسلامي :

لباس المرأة المسلمة أمام المحارم وغيرها	الأ ستاذ محمد نعمة الله إدريس الندوي	٥١
نظام الميراث في القرآن الكريم	الأستاذ محمد عناية الله أسد سبحاني	٦٢

دراسات أدبية وتاريخية :

حركة رسالة الإنسانية ودورها في مكافحة الطائفية والعنف	الأستاذ واضح رشيد الحسني الندوي	٦٨
أثر الحديث النبوي في اللغة والأدب	الأخ محمد محامد حسين الندوي	٧٥
موقف علماء الهند من الاستشراق في عهد الاستعمار	الأستاذ صاحب عالم الأعظمي	٨٦

من كنوز القرآن الكريم :

مفردات القرآن للعلامة السيد سليمان الندوي	محمد فرمان الندوي	٩٤

صفحة الشباب والطلاب :

ما أحوجنا إلى الإخلاص !؟	الأستاذ السيد إقبال أحمد الندوي	٩٧

إلى رحمة الله تعالى :

فضيلة الشيخ المربي صفي الله خان الجلال آبادي في ذمة الله تعالى	قلم التحرير	٩٩
الحافظ محمد صديق المرادآبادي إلى رحمة الله تعالى	" "	٩٩
والد الشيخ يعقوب الندوي وابن أخيه في ذمة الله تعالى	" "	١٠٠
الضابط الكبير حسن عبد الغفور إلى رحمة الله تعالى	" "	١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أدب الكلام في شريعة الإسلام

نحن في عالم بشرى يتميز بالتطور الهائل في جميع مجالات الحياة، حتى إن حياة البشر أصبحت ميسورة بالعلوم الحديثة والتقنيات الجديدة التي اكتشفها الإنسان من خلال توافر الوسائل الحضارية والتسهيلات المدنية ، مما جعل العالم قرية واحدة يسمع فيها الناس دقات القلوب على اختلاف القارات ، ويطلعون على الخبايا والأسرار التي يضن بها الإنسان من أن يسمع حسيسها غيره ، وقد نجح علم الطبيعة في اختراع آليات تقوم باستخراج ما يضمره الإنسان في نفسه وضميره من أفكار وآراء حول أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، وهي تكشف عن الصدق من الكذب والحقيقة من التزوير كذلك .

ومن هنالك كانت تعاليم الإسلام واضحة جلية في استعمال اللسان وإطلاق حاسة النطق ، وإدلاء الكلام جزافاً ، من غير تمييز بين الصدق والكذب ، والحق عن الباطل ، فأمرت بالتفكير عند كل قول، وأن لا يتكلم المرء في كل مسألة وقضية ، ولا يفتح فاه بدون حاجة شديدة إلى التكلم أو إبداء الرأي، ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بكظم الغيظ والتغلب على الغضب ، ذاك أن الكلام في حالة الغيظ والغضب قد يؤدي إلى نتائج وخيمة ، وإلى هرج ومرج، وإلى عداوة وقتال، فإذا بالحياة الاجتماعية تقع فريسة التفرق والتمزق وتسودها ظلال الشر والشؤم واليأس ، وتذهب "الاجتماعية" التي يدعو إليها الدين الحنيف ضياعاً ، ولكن ليس معنى ذلك أن الانفتاح والمزاح وبيان النكت واللطائف خلال المجالس واللقاءات لتلطيف الجو وإذهاب الملل والسآمة من النفس ، وتوسعة نطاق الجد ، يأتي في ضمن الممنوع ، فإن طبيعة الإنسان ليست جداً محضاً لا يخالطه شئ من قبيل الهزل وليس هزلاً وحده لا يشوبه جد ومتانة ، فإن الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان على طبيعة البشر في جميع أجزاء وشئون الحياة ، ولكن الناس في الزمن الأخير لم يدركوا هذا السرّ ، لأنهم جهلوا معاني الدين وحُرموا العلم ، كما تنبأ بذلك رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال : يُقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ، ويكثر الهرج ، قيل : يا رسول الله ! وما الهرج ؟ فقال : هكذا بيده فحرفها ، كأنه يريد القتل .

والجهل بتعاليم الإسلام ومنهجه الغالي يؤدي في معظم الأمور إلى تنفير الطباع من الدين الإسلامي وتعاليمه والبعد عن تطبيقها على الحياة والمجتمع ، ولا سيما شئون المعاشرة وآداب التعايش ، ويأتي في رأس قائمة الحياة الاجتماعية ، أدب الكلام وصدق السلوكيات ، ذلك لأن كثيراً من الاختلال في موازين التوجيهات الدينية يتسرب إلى المجتمع من إهمال آداب العيش وأدب الكلام بوجه أخص .

يتحدث التاريخ الإسلامي أنه لما جاء وفد بني تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم سبعون رجلا فصاعداً بعد فتح مكة ، وأرادوا أن يفاخروا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في المجال الأدبي من الشعر والخطابة ، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته بصوت عال جاف : أخرج إلينا يا محمد –وقصة هذه المفاخرة طويلة- فنزل بالمناسبة قول الله تعالى : (إِنَّ الَّذِيْنَ يُنَادُوْنَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ❖ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُوْنَ ❖ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوْا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ❖ وَاللّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ) ونهى الله تعالى عن رفع الأصوات فوق صوت النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في المناسبة نفسها حينما ارتفعت الأصوات بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أمام النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم في شأن قدوم وفد بني تميم ، فقد روى البخاري رحمه الله :

"حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، قال : أخبرني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبرهم : أنه قدم ركب من بني تميم على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمّر الاقرع بن حابس : فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تُقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَرَسُوْلِهِ ❖ وَاتَّقُوْا اللّهَ ❖ إِنَّ اللّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ❖ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَرْفَعُوْا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ❖ وَلاَ تَجْهَرُوْا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ❖ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُوْنَ) قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه . صحيح البخاري كتاب التفسير:(سورة الحجرات) .

ولما نهى الله تعالى عن رفع الأصوات وإدلاء الآراء في أيّ قضية أمام النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فكان ذلك أدباً إلهياً منصوصاً حول استعمال اللسان في مناسبات مختلفة ومنه يتفرع أدب الكلام لعباده في هذا العالم البشري ، ولذلك ركز النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على هذا الأدب بغاية من الأهمية ، وقال في بعض أحاديثه : وهل يكب الناس في النار على وجوههم

إلا حصائد ألسنتهم (رواه الترمذي) ، وقال أيضاً : من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة ، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه . (البخاري : كتاب الإيمان) .

وقد روى البخاري في كتاب الأدب عن الزور وشهادته فقال : "عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : ثلاثاً ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين وشهادة الزور ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يقولها حتى قلت: لا يسكت" وفي رواية : ليته سكت .

فما رأيك أيها القارئ الكريم! في قول الزور والكذب ، الذي أصبح ميزة السياسة الذكية وعلامة الشطارة اليوم ، حتى في مجتمعات المسلمين ، وقد نال التظاهر بالمودة ، وإسرار البغض ظاهرة عجيبة عند عدد كبير من الناس ، وذلك ما يعرف في الشريعة الإسلامية بالنفاق ، كما كان أهل النفاق يفعلون ، ولقد قال الله تعالى : (وَ إِذَا لَقُوْا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قَالُوْا : آمَنَّا ❖ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِيْنِهِمْ ❖ قَالُوْا : إِنَّا مَعَكُمْ ❖ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُوْنَ) وقد أمر الله سبحانه بالتبيّن لما قد جاء به أحد من نبأ أو قول فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوْا أَنْ تُصِيْبُوْا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ❖ فَتُصْبِحُوْا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِيْنَ) {الحجرات/٦} وما أكثره اليوم نميمة وسعاية واتهامات كاذبة ، وبالأخص نجد مثل هذه الأنباء في حياتنا الاجتماعية ، وفي الأسر والمجموعات المسلمة ولا يرجع ذلك إلا إلى فساد الطبيعة وفقدان التربية الصالحة ، و وجود الفراغ الديني في مجالس الأشرار والمفسدين .

هناك إشاعات وقياسات وثرثرات لا تمت إلى الواقع بأي صلة ، باتت مشاغل جذابة ينجذب إليها الشباب ومن إليهم لمجرد ملء الفراغ ، والتفرج على كرامات الناس أفراداً وجماعات ، أضف إلى هذه الأدواء الخلقية الأكاذيب والافتراءات والاتهامات والبهتان كم تنال من طاقاتنا البناءة ، وأوقاتنا الغالية ونعم الحب والهدوء والطمأنينة ، ويقربنا إلى الجدال والقتال وتشتت الصفوف وتمزق العلاقات الأخوية والعداء المستمر ، وكذلك الغلظة والفظاظة في المتكلم يسبب تأذي المخاطب ويجرح قلبه وشعوره لمن الأساليب الكلامية التي تدخل في عداد المنهيات وتؤدي إلى التفرق والانفضاض ، يقول الله تعالى وهو يخاطب نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ ❖ وَلَوْ

كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ❖ فَاعْفُ عَنْهُمْ ❖ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِيْ الأَمْرِ) {آل عمران/١٥٩} أليس ذلك الواقع المشاهد اليوم في مجتمعات المسلمين .

بالمناسبة نسوق طائفة من أحاديث النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم حول حفظ اللسان والاتقاء مما تورثه الغفلة عن ذلك من الأدواء الخلقية والأمراض النفسية .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، وقال الله تعالى:(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْدٌ)}البخاري باب حفظ اللسان} .

ومن حسن خلق المرء ، الحلم والرفق والعفو عن المذنب ، وكذلك الوفاء بالوعد ، وطيب الكلام ولينه وطلاقة الوجه عند اللقاء بصرف النظر عن أي كبر أو إعجاب بالنفس ، والشفقة على الصغار والتسليم على الصبيان والخدم .

فعن أنس رضي الله عنه قال : ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي قط : أف ، ولا قال لشئ فعلته : لم فعلته ، ولا لشئ لم أفعله : ألا فعلت كذا (متفق عليه) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : الفم والفرج (رواه الترمذي) وقال حديث حسن صحيح ، وعنه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان ، وفي رواية مسلم : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة (متفق عليه) .

وأصيب مجتمعنا اليوم بأدواء خلقية ونفسية شديدة وحلت فيه الرذائل محل الفضائل وكرم الخلق ، ذلك كالغيبة والنميمة والطعن والبغض والحسد والتجسس والمن على الممنون والغدر واللعن والغضب وما يشبه ذلك .

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ! ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك (رواه الترمذي وحسنه)

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ! حدثني بأمر اعتصم به قال : قل ربي الله ثم استقم ، قلت يا رسول الله ! ما أخوف ما تخاف عليّ ، فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : هذا (رواه الترمذي وحسنه وصححه) .

ولعل استعمال اللسان في مجال التعليم والتربية بالقسوة وشئ من الغلظة ، ليس فيه ما يمانع إذا كان الغرض سليماً ، والنية صالحة ، وكذا إذا كانت هناك حاجة تقتضي الزجر والتوبيخ لمجرد الإصلاح والتربية للصغار والخدم ومن هم بحاجة إلى ذلك: فيُرجى أن لا يكون مما يدخل في المحرمات .

وجاء فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه .

وهناك نوع من الكلام يأتي في نطاق الحوار والمجادلة في مجال الدعوة إلى الله ، ويدخل في عداد ما أمر الله به من الدعوة إلى سبيل الرب تبارك وتعالى ، يقول الله تعالى : (اُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ ❖ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ) {النحل/١٢٥} لا ريب أن ذلك من واجبات الدين ، يختار له أسلوب من الكلام بليغ يؤثر في القلب ويكون مدعما بالدليل ، سواء قبله المدعو أم لم يقبل ، ولكن الأسلوب المؤدب اللين يفتح الطريق للتفكير في الدعوة والتأمل فيما إذا كانت الدعوة حقا فهو لا ينبغي أن يخسر الحق ، ويعيش في الباطل .

ونختم حلقة الكلام الأولى بذكر نوع من الظن طالما يكون كذباً ويؤدي إلى فساد في الدين والخلق .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله ، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم (رواه الشيخان) .

وسيكون الحديث القادم – بمشيئة الله تعالى – عن أفضل كلام يدعو فيه العبد ربه تبارك وتعالى ويبث إليه بأشواقه وآماله في لهفة وشوق وخشية ، وهي دعوات النبي الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم .

التوجيه الإسلامي

النظام الإسلامي في معركة الأفكار

بقلم : الأستاذ السيد محمد الحسني الندوي (رحمه الله)

إذا أردنا أن نواجه الأنظمة السياسية المعاصرة بفاعلية أكثر ، وأن نكسب لذلك شباباً لا يميع ولا يذوب ، ولا يسالم الأعداء ، ولا يفتر في النضال والكفاح ، والجهاد والفداء ، وجب علينا أن نستعمل قوة الإسلام الذاتية في هذه المعركة ، فإن الإسلام لم يأت إلا ليسود ، ويحكم ، ويوجه ، وينتصر على الدعوات الاجتماعية والأنظمة السياسية التي تزاحمه ، ثم يشق طريقه إلى الإمام معتمداً على قوته الذاتية ومنهجه الخاص في السياسة .

هذه القوة الذاتية في النظام الإسلامي تأوى إلى ركنين .. شديدين، أولهما: الثقة بالإسلام كمنهج إلهي تتوقف عليه سعادة الإنسان ، وثانيهما : كراهية الأنظمة الباطلة (غربية كانت أم شرقية ، رأسمالية أو اشتراكية ، قومية أو علمانية ، شيوعية أو ماركسية) كراهية عقائدية طبيعية ، تمتزج بالنفسية والروح ، والعقل والعاطفة ، واللحم والدم ، وذلك على أساس أن هذه الأنظمة تحول دون إقامة النظام الإسلامي ، وتطبيق منهجه ، وتنفيذ شريعته .

فالركن الأول (يعني الثقة بالنفس ، والاعتماد على ما جاءت به الشريعة) يمنعنا من الانسياق مع التيارات الجاهلية ، ويحافظ على إيماننا وعقائدنا ، ولكنه لا يتقدم إلى أكثر من ذلك ، والمعلوم أن الجمود لا يؤدي إلا إلى الزوال ، والمرء الذي يدافع عن نفسه فحسب تخور قواه وتنهار أعصابه في النهاية حتى يستسلم للعدو ، ولذلك أردفه الإسلام بركن آخر يقوى أوله ويشد عضده ، وهو كراهية الأنظمة الجاهلية ، بجميع ألوانها وأشكالها ، وفي جميع عصورها وأدوارها ، ومقت الذين تولوا كبرها ، وحملوا لواءها مقتاً شديداً ، وبذل كل الجهد والوقت لإقصائهم عن مسرح القيادة حتى لا يستطير شرهم ، ولا ينتشر مذهبهم المادي ومنهجهم الحيواني في النوع الإنساني الذي أكرمه الله بالأمانة والخلافة ، والنبوة والرسالة ، وشرفه بالإيمان والعرفان والحب والحنان .

إن هذا المنهج الإسلامي لا تقتضى به استراتيجية المعركة والعقل العملي فحسب، بل إنه من غايات الإسلام العظيمة التي نص عليها القرآن ، ولا يتكمل بغيرها الإيمان ، يقول الله تبارك وتعالى يصف المؤمنين : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ

التوجيه الإسلامي

❖وَالَّذِيْنَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) {الفتح/٢٩} ..

ويقول : (أذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ أعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ ❖ يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ❖ وَلاَ يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ) {المائدة/٥٤} .

ويقول : (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُوْنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ❖ يُوَادُّوْنَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ ❖ وَلَوْ كَانُوْا آبَاءَهُمْ أوْ أبْنَاءَهُمْ أوْ إخْوَانَهُمْ أوْ عَشِيْرَتَهُمْ ❖ أولئِك كَتَبَ فِيْ قُلُوْبِهِم الإيْمَانَ ❖ وَأيَّدَهُمْ بِرُوْحٍ مِّنْهُ) {المجادلة/٢٢} .

ويقول : (يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَتَّخِذُوْا بِطَانَةً مِّنْ دُوْنِكُمْ ❖ لاَ يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالاً ❖ وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ ❖ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ❖ وَمَا تُخْفِيْ صُدُوْرُهُمْ أكْبَرُ) {آل عمران/١١٨} .

ويقول : (كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أبَداً ❖ حَتَّى تُؤْمِنُوْا باللهِ وَحْدَهُ) {الممتحنة/٤}.

وذلك لأن القرآن يريد أن يغرس هذه المعاني في قلوب المؤمنين ويرسخها في أذهانهم حتى لا ينسوا دورهم العظيم في هذه المعركة ، ولا يؤخذوا على غرة .

أما في الحديث الشريف فقد جاء صراحة :

"من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان" أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وأوجب على كل مسلم أن يجدد هذه المعاني في كل عشاء ، فيقول في دعاء القنوت في صلاة الوتر : (وهو واجب لا يصح بدونه الصلاة) : "نخلع ونترك من يفجرك" وهو أبلغ وأوضح في تنبيه الفكر وإيقاظ الشعور وإثارة العاطفة .

وجاء في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه : "ما رأيته صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شئ ، فإذا انتهك من محارم الله تعالى ، كان من أشدهم غضباً" (١) .

وقد بات الأمر بالعكس في هذا الزمان ، وظل المسلمون لا يغارون على أنفسهم ، أو لا يغارون على شئ كما حدث أخيراً ، وأصبح الاعتبار عندهم أكثر الأحيان بالأراضي والأوطان لا بالكفر والإيمان .

و ورد في آثار أخرى : "ومن مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق" (٢) .

"وثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" (٣) .

و "من جاء مع المشرك وسكن معه فهو مثله" (٤) .

إلى غير ذلك من آثار كثيرة في النهي عن التشبه بالكفار والأمر بمخالفتهم،لا في الأفكار والمعتقدات فحسب،بل في الآداب الاجتماعية أيضاً،وليس الغرض منها إلا أن يتميز المعسكر الإسلامي عن المعسكر الجاهلي في كل شئ،ويعرف موقفه وخطه في معترك الأفكار أو في ميدان النضال .

وفي ذلك حكمة بالغة ورحمة شاملة ، فإن هذه المخالفة لا تمنع الكيان الإسلامي من التميع والذوبان فحسب ، بل تُثير في المسلمين كراهية شديدة لنظام الكفر ، والتمرد والعصيان ، ورغبة ملحة في تغيير هذا النظام الفاسد ، اقتداءاً بسنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ❖ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوْا بِهَذَا الْحَدِيْثِ أَسَفاً) {الكهف/٦} وتدلنا على تلك البذور التي تبذرها في قلوب المؤمنين نحو الجاهلية بأوسع معانيها ، وجميع أبطالها وممثليها .

(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ ❖ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّار) {الفتح/٢٩} .

فما دمنا لا نؤمن بقرارة نفوسنا أن هذه الأنظمة السياسية والاجتماعية تعارض إسلامنا على طول الخط ، وتتربص بنا الدوائر ، وتدبر لنا المؤامرات والدسائس ، وتتهز كل فرصة للنيل من الإسلام ، والضرب على المسلمين ن سواءاً بالهجمات والغارات ، أو بالارساليات والبعثات ، والمعاهدات والاتفاقيات .

وما دمنا لا نؤمن أن هذه الأنظمة تعادي – أصلاً – رسالة الله وشريعته الكاملة ، وتريد القضاء على من يدعو إليها ، وتعتبر الدعاة إلى الله ألدّ أعدائها وأكبر عائق في سبيلها لا تحدث فينا قوة المقاومة وقوة الهجوم ، ورد فعل حاسم عنيف ينزل بنا حالاً في الصفوف الأمامية وخط النار .

إن هذين الركنين بمثابة جناحين للصقر ، فإذا كسر منها جناح، لم يقدر على الطيران ، وهذان الجناحان هما الحب في الله والبغض في الله ، فإذا استويا عند المؤمن طار بهما ولم يبال .

أما نظرية التقارب والتعايش والمسالمة التي يؤمن بها أو يتظاهر بها – في تعبير أصح – المتغربون والتقدميون ، فهي لا تستطيع أبداً أن تحل مشكلة التخلف والضعف والانحطاط ، وتنتصر في معركة الأفكار ، وصراع الأنظمة والحركات ، لأنها لا تقدر – أساساً – على منع الموجات، وصد التيارات ، ومواجهة العدو في أرضه ، وعقر داره ، وإخزائه وتعريته ، وكشف القناع عن أخطاره ومكائده .

فإذا دخل هذا النوع من الشباب الأعزل في معركة الحياة لم يجد ما يدافع به عن نفسه ، فليس عنده ثقة بذاتية الإسلام ، يحافظ بها على دينه وثقافته ، وليس لديه كراهية ومقت لأعداء الله وأعداء الإنسانية ينتصر بها على الباطل ، فيذوب في نظامهم بطبيعة الحال ، كما يذوب الملح في الماء ، وذلك بخلاف أهل ذلك النظام ، فإنهم يؤمنون بذاتيتهم ويتعصبون لنظرياتهم ويتفجرون بغضا وعداءاً للدعوة الإسلامية والمنهج الإسلامي في السياسة والتربية والحكم : (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ❖ وَمَا تُخْفِي صُدُوْرُهُمْ أَكْبَر) {آل عمران/١١٨} .

فلابد أن نوسع إطار كراهيتنا لهذا النظام إلى حد يمنع ناشئتنا وشبابنا من تقليد هؤلآء "الببغاوات" و "الاقزام" في كل صغير وكبير ، وسواء في قطاع الأفكار والمعتقدات ، أو في قطاع المسليات والكماليات ، ونضع حداً على توريد البرامج الفنية و وسائل التربية ، وأسباب الترفيه والتسلية ، فكيف يسعنا أن نتكفف أعداءنا لأسباب تافهة زائدة عن حاجاتنا كالكماليات ، وأمور دقيقة حساسة كالتربية والإعلام ، وهم يترقبون للفتك بنا في أي فرصة ، ويرقصون فرحاً على هزيمتنا في كل معركة .

إن نظام الإسلام السياسي لا يقوم على مجرد الدعوة ، ولا يقنع بالسلبية بل إنه يبث في أتباعه روح الكراهية والبغض نحو أئمة النفاق ، والضلال والكفر والإلحاد، ودعاة الإباحية والحيوانية ، والشذوذ والجنون : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ أَوْ يَعْقِلُوْنَ ❖ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَام ❖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيْلاً) {الفرقان/٤٤} .

ولذلك نجد القرآن العظيم يكثر من ذكر لعن المؤمنين على أمثال هؤلآء بجانب لعنه ولعن الملائكة والأنبياء.

والفرق الأساسي بين نظام الإسلام السياسي والأنظمة الأخرى أنه لا يقتنع بالقوة السياسية ولا يحسبها أكبر همه ومبلغ علمه ، ولا يريد مجرد الفوز في الانتخاب والوصول إلى مقاعد البرلمان شأن الحركات السياسية وأحزاب اليمين واليسار ، "وأعداء الاستعمار" ، فإن هؤلآء لا يمقتون الاستعمار أبداً ، إنهم يطلبون وكالة الاستعمار ويطلبون حق التوزيع وحق التمثيل فحسب ، ولذلك تراهم يفرقون بين استعمار واستعمار ، فتارة يساومون هذا وتارة يساومون ذاك، فالاعتبار عندهم بشروط العقد أو الوكالة ، وحاشا أن يفكروا في مقته وكراهته ، وكيف يمقتونه وقد استعمر أرواحهم وعقولهم وأفكارهم ، وكيف يكرهونه أو يخاصمونه وقد أخذ منهم ميثاقا غليظا .

أما النظام السياسي في الإسلام ، فإنه لا يعادي هذه الأنظمة ولا يصارع

المذاهب السياسية والدعوات الجاهلية ليستمتع أهله بالقيادة ومنافعها ، كما استمتع بها الذين من قبلهم ، ويخوضوا كالذين خاضوا ، ويسيروا على المسلك الذي سلكوه ، ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، بل يعادي هذه الأنظمة ويقاوم هذه الحركات في سائر المجالات والجبهات ، ويخالف أهلها من أول الطريق إلى نهاية الشوط ، ويمقت احتلالهم الأراضي الإسلامية كما يمقت احتلالهم العقول الإسلامية ، ويمقت احتلالهم أرواح الشباب وطاقاته قبل أن يمقت نهبهم ثروات البلد وخيراته .

فالذي يؤمن بهذه النظرية ، وبهذا المبدأ ، ويسير على هذا الخط يعتَبر مرابطاً على الثغر ، يقظاً واعياً لكل خطر ، يصبر على أذاه ، ويصبر على حرمانه من المنافع المادية ، ولكنه لا يصبر على انتهاك حرمات الله ، وتعدى حدوده ونقصان دينه ، وينطق بلسان حاله قبل أن ينطق بلسان مقاله : "أينقص الدين وأنا حي" (٥) .

ويخرج من هذا النظام أكثر قوة وأقوى صموداً وأعمق إيماناً ، وأشد غيرة وحماساً ، فلا تجد هذه الأنظمة فيه منفذاً تدخل به ، وثغرة تتسرب منها ، وضعفاً تستغله ، بل تنعكس الآية ويقف النظام الجاهلي (بشقيه الغربي والشرقي) في موقف الدفاع ويرى في هذا المؤمن ونظامه الجديد حظراً على مكاسبه وانتصاراته وصولاته في أرض الإسلام .

إن هذا التحول ، تحول المعسكر الإسلامي من خط الدفاع إلى خط الهجوم ، واندحار المعسكر الجاهلي الحديث من خط الهجوم إلى خط الدفاع ، تحول عظيم ، وهو لا يمكن إلا بتحقيق تلك المعاني والمبادئ وإرساء نظامنا السياسي على هذين الركنين العظيمين والاستعانة بهذين الجناحين الكبيرين .

إنه منهاج لا تقتضى به – كما قلت – استراتيجية المعركة والعقل العملي، والتحول النفسي فحسب ، به إنه في ذات الوقت من غايات الإسلام العظيمة الكريمة، التي نص عليها القرآن ، ولا يكمل بغيرها الإيمان .

---

(١) عن الحسن بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم (الشمائل للترمذي) .
(٢) صحيح مسلم – كتاب الجهاد .
(٣) متفق عليه .
(٤) زاد المعاد : ج/١ ، ص/٢ .
(٥) كلمة خالدة باقية ، قالها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه في فتنة الردة المشهورة ، فقضى بها على هذه الفتنة .

أوّل ما تفقدون من دينكم

بقلم : سعادة الدكتور محمد بن سعد الشويعر

هذا العنوان جزء من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة" وما ذلك إلا لمكانة الأمانة وثقلها ، وقد جاءت آيات كثيرة ، في كتاب الله تبيّن منزلة الأمانة ، وتحثّ على ما يجب على كل مسلم حيالها ، وأدائها على الوجه المطلوب ، نجتزئ من ذلك :

= في معرض التعامل بين الناس ، والمعاملة المالية : بيعاً وشراءً ، أو مداينة يقول سبحانه : (فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بَعْضاً ❖ فَلْيُؤَدِّ الَّذِيْ اؤْتُمِنَ أَمَانَتَه) {البقرة/٢٨٣} .

= وفي معرض كسب الثقة بين الناس ، والوفاء بالالتزامات نحو الآخرين ، لتستمرّ المودّة والإخاء يأتي الأمر للمؤمنين بأداء الأمانات والحقوق بنفس راضية يقول سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) {النساء/٥٨} .

= وفي مجال التعامل مع الله والاستجابة لرسوله ، فيما هو أهم من عروض الدنيا وأموالها ، يأتي الأمر التأكيد على : أمانة العقيدة التي هي محور الأعمال ، وأمانة العبادة فيما شرع الله : أمْراً بالاستجابة ، ونهيا بالابتعاد ، فخاطب الله أهل الإيمان ، بما يلامس قلوبهم ، بمثل هذا القول الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تَخُوْنُوا اللَّه ❖ وَتَخُونُوْا أَمَانَاتِكُمْ ❖ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ) {الأنفال/٥٨} . ذلك أن خيانة أمانة الله ، وعهد رسوله ، أشدّ من خيانة التعامل بين الناس ، في عروض الدنيا ، وتزداد الأهمية ، بالنهي عندما تكون الخيانة لشرع الله ، وأوامره ، حيث تكون عن سابق إصرار وتعمّد .

فالأمانة التي جاءت بمشتقاتها في كتاب الله ، وعلى لسان رسوله الكريم مئات المرّات ، مرتبطة بالإيمان ، فإنما تمثّل الخير والنّبل ، في حسن التعامل الاجتماعي أو الأخلاقي ، أو الأسري أو المالي ، أو أمانة الأسرار والكلام ، وغير ذلك ، وعكسها الخيانة ، فما أجمل تعاليم الإسلام ، وما أحسن آدابه ، لأنه دين الله ، الذي رضيه لخير أمة أخرجت للناس ، فهو يهذّب النفوس ، ويرقّق الطباع ، ويدعو إلى تآلف المجتمع ، وتقارب القلوب ، وإلى الأمن والإيمان

وعلاقتهما بالأمانة.

وما انتشار الإسلام في كثير من مواقع المعمور من الأرض ، والتي لم تبلغها جيوش المسلمين ، عندما امتدت في الأرض ، لنشر دين الله ، امتثالاً لحقّ الله في الدعوة لدينه ، في مثل هذا التوجيه : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ❖ وَسَوْفَ تُسْأَلُوْنَ) {الزخرف/٤٤} بل لم تحرص كثير من أمم الأرض ، على الاهتمام بالإسلام : عقيدة وعملاً ، وحماسة ومحبة ، وامتثالاً وسلوكاً ، ثم دعوة إليه ، بعدما لامست بشاشته القلوب ، وأنسوا بأمانة التعامل مع المسلمين ، لأنهم رضوا بالله ، وبالإسلام ، فحققوا من القلوب ، لم يتم هذا إلا من إعجاب تلك الأمم بطبائع المسلمين الوافدين عليهم : صدقاً في القول وأمانة في التعامل .

وما حرص المسلمون على التمسك بمكارم الأخلاق ، التي يحثّ عليها دينهم ، إلا لأنها سجيّة انطبعت فيهم ، وامتثلوا أمر الله ، وأمر رسوله فيها : خلقاً في النفوس ، وتطبيقاً في العمل ، بدون تكلف أو طمعاً في مصلحة .

وما حصل من آثار في السابق ، فإن البشرية تتوق إليه في الحاضر ، كما روى عن أحد المستشرقين الذين درسوا الإسلام جيداً ، فقال : لو طبّق المسلمون تعاليم دينهم باهتمام وحرص ، لانقادت أوربا للإسلام ، لأنهم يبحثون عن شئ لم يجدوا القدوة الصالحة فيه ، ومن ذلك الأمانة وحسن التعامل ، وتوضيح أمر الله فيها .

وما ذلك إلا لأن الأمانة صفة طيبة ، وخلق نبيل ، يترك أثراً في نفوس الفاقدين لهذه الخصلة ، المنطلقين في تعاملهم ، من حبّ الأثرة والاستعلاء ، تلك الصفات التي تترك أثراً سيئاً في التعامل .. وجشعاً في الأنانية والتكالب على المال بدون قناعة ولا مواربة .

ولا شك أن الحرص والثبات ، على الأمانة والصدق في المواعيد ، وأداء الحقوق للآخرين ، والوفاء بالوعد ، التي هي من تعاليم دين الإسلام ، عندما يتحلى بها الفرد ، ويثبت عليها ، فإنما ذلك لوجود رقابة ذاتية في موطن الإحساس، فيهتمّ بالالتزامات التي له ، ويعطى ما عليه للآخرين مما يترك أثراً في من يتعامل معه ، والنفوس قد جبلت على حبّ الخير ، إلا أنّ ذلك الأثر ، يؤدي دوراً كبيراً في القلوب ، عندما يشعر الطرف الآخر : من المسلم أنه يلتزم بأمر الله ، وأن هذه السلوكيات مما تأمر بها تعاليم الإسلام .

ثم يتعمّق ذلك الأثر ، عندما ينتقل التعامل ، إلى التعبير والحديث ، لتأصيل ذلك التعامل ، وبنصّ شرعي من أمر الله ، أو كلام رسوله صلى الله

عليه وسلم ، يعبّر عن ثقل الأمانة ، والحثّ على حسن أدائها ، سواء كانت مالاً أو سراً من الأسرار ، حيث يقول سبحانه : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ❖ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ ❖ أَنْ تَحْكُمُوْا بِالْعَدْلِ ❖ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ❖ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيْعاً بَصِيْراً) {النساء/٥٨} ، بل إن الأمانة التي حرص عليها ، أهل الإسلام ، المترسّمون خطا نبيهم صلى الله عليه وسلم ، أصبحت صفة لازمة فيهم ، ومدحهم الله بها في الكتب السابقة لبعثته عليه الصلاة والسلام ، ولازمة من لوازم هذه الأمة ، التي عرفهم أهل الكتاب بها .

وقد عظّم الله منزلة المؤمنين بحرصهم على أدائها ، وفق وجهها الحقّ ، وما محافظتهم عليها ، إلا من محافظتهم على شرع الله ، الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربّه ، فبلّغه للأمة بأمانة ، ولم يكتم منه شيئاً ، لأنّ ذلك أمانة عنده ، يحاسبه ربّه على عدم التبليغ يقول تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ ❖ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ❖ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) {المائدة/٦٧} .

واقتدى المخلصون من أمته ، المهتدون بهديه ، به في القدوة والتبليغ ، فأثمرت في الأمم التي احتكوا بهم ، ودخل الإيمان في قلوبهم من هذا الطريق ، وإنها لدعوة لكل مسلم في هذا الزمان ، بأن يتمثّل في عمله ، ومعاملته مع الأمم الأخرى ، على وجه الأرض ، بحسن الأداء ، وبنموذج القدوة بالأمانة ، في جميع تعامله مع الشعوب بالمفهوم الحقيقيّ للأمانة : في عبادته وعقيدته ، في حديثه وبيعه وشرائه ، في أسرته وحسن خلقه ، في مواعيده وأسراره ، في حديثه وعقوده وغير ذلك ، لأنّ هذه الأمور كلها أمانات ، لا يستهان بها .. ولابدّ أن يبين أثرها في الآخرين : إعجاباً ثم تقليداً ، ثم اهتماماً بالمصدر الذي هو الإسلام ، فإذا سار فيها كلّها : طبعاً لا تطبّعاً ، وعرفه الآخرون بها ، فإنهم مع كونه يكسب ثقتهم ، ويحترمونه ، فإنه يعتبر داعية لدينه ، وممثلاً لخلق المسلم ، الذي مدحه الله بالأمانة ، باعتبارها من الصفات العديدة ، التي مدح الله بها جل وعلا المؤمنين ، و وعدهم سبحانه ، على الاهتمام بها ، والمحافظة عليها : الجزاء الأوفى ، والدرجات العلا يوم القيامة ، فضلاً عن القبول في الدنيا ، والسمعة الحسنة ، يقول سبحانه في سورة المؤمنون في صفات عديدة مدح الله بها الفئة المؤمنة ، ومنها الأمانة : (وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ ❖ وَعَهْدِهِمْ رَاعُوْنَ) {المؤمنون/٨} .

والأمانة والإيمان : مرتبطان ومتلازمان ببعضهما : لغة وعقيدة ، فلا أمانة

لمن لا إيمان عنده ، أما الارتباط في اللغة : فإنها سوياً مشتقّان من مادة أمن ، وهي تفيد الاطمئنان والاستقرار .

وأما العقيدة : فلأن كلا منهما موطنه القلب ، ومتى اختلّ مكان كل منهما من القلب ، ضعف الوازع ، فدبّ الخلل ، وفسد مكنون القلب بما يلامسه من غشاوة ، ومن ثم تخفّ الرقابة مع الله سبحانه .

والأمانة عهد مع الله الذي يعلم السرّ وأخفى ، وكل فرد مسلم مسئول عن الأمانة العامة ، والأمانة الخاصّة ، في العمل والوظيفة ، بل في كل أمر ، وما يترتب على هذا العهد من مسئوليات وتبعات .

من حيل الحيوانات:

جاء في مجتمع الأمثال ، حكايات هي سبب تلك الأمثال ، على ألسنة الحيوانات منها :

من حيل الثعلب : أن العرب زعمت ، بأن الثعلب رأي حجراً أبيض بين لِصُبَيْن – الفتحة الضيّقة بين حجرين – فأراد أنْ يغتال به الأسد ، فأتاه ذات يوم فقال له : يا أبا الحارث ، الغنيمة الباردة ، شحمة بين "لِصُبَيْنْ" رأيتها ، فكرهت أن أدنو منها ، وأحببت أن تتولّى ذلك أنت ، فهلمّ لأريكها .

فانطلق به ، حتى جاء به إليها ، فقال : دونك يا أبا الحارث .

فذهب الأسد ليدخل ، فضاق به المكان ، فقال له الثعلب : ادفع برأسك .. فأقبل الأسد يدفع برأسه ثم يدفع والثعلب يشجّعه ، حتى نشب ، فلم يقدر أن يتقدّم ولا أن يتأخر .

ثم أقبل الثعلب يخدش خورانه – يعني مؤخرة – فقال الأسد : ما تصنع يا تعاله – لقب الثعلب – قال : أريد أن استنقذك ، قال : فمن قبل الرأس أذنْ ؟ قال الثعلب : لا أحبّ تخديش وجه الصاحب {١٧١/٢} .

ومن حكم الضب : زعموا أن أرنباً التقطتْ تمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضبّ ، فقالتْ : الأرنب ، يا أبا الحسل – كنية الضب ، والحسل والد الضبّ – قال : سميعاً دعوت قالت أتيناك لنحتكم إليك ، قال : عادلاً حكمتها .

قالت : فأخرج إلينا ، قال : في بيته يؤتي الحكم ، قالت : إني وجدت تمرة، قال : حلوة فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغي الخير، قالت : فلطمته ، قال : بحقّك آخذت ، قالت : فلطمني ، قال : حرّ انتصر ، قالت : فاقض بيننا ، قال : قد قضيت {١٧/٢} .

بفضل القرآن الكريم : كانت علوم العربية

بقلم : أ.د. محمد علي لبلاسي
(أكيدمي خيبر دولي ، عضو اتحاد الكتاب)

القرآن الكريم كتاب مشعّ تنطلق منه كل العلوم : لتعود إليه لتفسّره ! "فالدراسات العربية نشأت بفروعها المختلفة ، متعلقة بالقرآن الكريم ، كتاب الله العزيز ، فكأن القرآن هو المحور الذي دارت حوله تلك الدراسات المختلفة ، سواء فيها تلك الدراسات التي تتعلق تعلقا مباشرا بتفسير القرآن ، وتوضيح آياته، وتبيين معناه ، واستنباط أحكام الشريعة منه ، أو تلك التي تخدم هذه الأغراض جميعها ، بالبحث في دلالة اللفظ ، واشتقاق الصيغ ، وتركيب الجمل ، والأسلوب والصور الكلامية ، واختلافها باختلاف المقام ، حتى تلك الدراسات التي تتعلق بالرسم الإملائي ، والفلك ، والرياضة ، واستكناه أسرار الطبيعة ، كل هذه الدراسات قامت أساسا : لخدمة الدين الإسلامي ، و لغرض فهم القرآن الكريم ، مصدر التشريع الإسلامي ، و دستور المسلمين" (١) .

واللغة العربية "لم تصر لغة عالمية حقا – كما يقول نولدكه - : إلا بسبب القرآن والإسلام : إذ تحت قيادة قريش ، فتح البدو سكان الصحراء، نصف العالم لهم وللإيمان؛ وبهذا صارت العربية لغة مقدسة كذلك" (٢)؛ فأجهد العلماء أنفسهم في دراستها ، واستكناه أسرارها : ليقفوا على مواطن الإعجاز في كتاب الله العزيز (٣) .

ولا شك أنّ الحفاظ على كتاب الله تعالى ودينه كان السبب القوي لنشأة الدراسات اللغوية عند العرب ، بعد أنْ نشأ الاختلاط بين العرب والعجم إثر الفتوحات الإسلامية ، وخيف على الإسلام وكتابه من أثر ذلك ، وقد برزت نتيجة لذلك فروع الدراسات اللغوية ، والتي يعدّ أهم مجالاتها ما يلي – وبإيجاز - :

أ - المعاجم العربية :

حيث ذهبت طائفة من العلماء إلى البادية : لأخذ اللغة من الأعراب الفصحاء، وتدوينها صافية ، لم تشبها شوائب العجمة التي بدأت في الدخول إليها من الأقطار المفتوحة ، ومن العلماء الأجلاء الذين أبلوا بلاءً حسنا في ذلك ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، و الأصمعي ، و يونس بن حبيب الضبّي ، و أبو زيد الأنصاري وغيرهم (٤) .

في الوقت الذي أخذ الناس في الصدر الأول للإسلام ، يسألون كبار الصحابة عن تفسير بعض آيات القرآن الكريم ، وغريب ألفاظه .

وتحدثنا الروايات الإسلامية عن الصحابي المشهور "عبد الله بن عباس" بأنه كان يُسأل عن معنى ألفاظ معينة من القرآن الكريم ، فيفسرها للناس ،

ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربي .

وبذلك يمكننا أنْ نعدّ تفسير ابن عباس للقرآن ، على هذا النحو ، نواة للمعاجم العربية (٥) .

ب- **الأدب العربي :**

لقد شعر العلماء منذ الصدر الأول للإسلام بحاجتهم إلى الشعر العربي ؛ للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ؛ فأكبوا عليه يروونه ويحفظونه ويدرسون أساليبه ومعانيه وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب و وقائعهم ، ولولا هذا الباعث الديني ؛ لاندثر الشعر الجاهلي ، ولم يصل إلينا منه شئ (٦) .

يقرّر هذه الحقيقة أبو حاتم الرازي ؛ فيقول : "ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ؛ لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على آثارهم ، ونسي الناس أيامهم" (٧) .

ويقول ابن عباس رضي الله عنه : "إذا سألتموني عن غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر ؛ فإن الشعر ديوان العرب" (٨) .

ج- **علوم القراءات وعلم الأصوات :**

من المعلوم أنّ موضوع علوم القراءات : بيان الوجوه التي قرأت بها آي الذكر الحكيم ، وقد ظلت موضوعات هذه البحوث يأخذها الناس عن القرّاء عن طريق التلقين ، حتى جاء العصر العباسي ، فعكف العلماء على تدوينها ، وضبط قواعدها ، ونقد أسانيدها فقطعوا بها شوطاً كبيراً في سبيل الكمال (٩) .

وللقراءات أهمية خاصة ؛ حيث حفظت لنا أصوات اللغة العربية عبر أربعة عشر قرناً ؛ حتى لتمثل – في معظمها – النطق العربيّ الأصيل ؛ ومن هذا المنطلق أمكن تحديد معالم الصوتيات العربية ، ومناهجها ونتائجها ، فيما يعرف لدى المحدثين باسم : "الفوناتيك" (١٠) .

د- **النحو والصرف :**

ولو نظرنا إلى النحو العربي ، لوجدنا أنّ الغيرة على القرآن الكريم ، وصونه من التحريف على ألسنة الأعاجم ؛ كان السبب في وضع قواعده .

وتروي لنا الأخبار أنّ أبا الأسود الدؤلي ، كان أول من وضع النحو ، وأنّ السبب في ذلك أنه سمع قارئاً يقرأ : (أَنَّ اللَّهَ بَرِيْئٌ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَسُوْلِه) (١١) ، بكسر اللام من : "رسوله" ؛ فغضب لذلك ؛ وكان هذا حافزاً له على وضع مبادئ النحو (١٢) .

هـ- **علوم البلاغة :**

أمّا دراسة الأسلوب ، أو ما عرف عند العلماء فيما بعد ، بعلوم البلاغة ،

وهي علوم البيان والمعاني والبديع ، فتذكر المصادر العربية ، أنّ أبا عبيد معمر بن المثنى، كان من أوائل من ألف فيها ، وغايته توضيح الأساليب القرآنية (١٣) .

فيروى أنّ الفضل بن سهل أرسل في طلب أبي عبيدة من البصرة ، فلما قدم عليه سأله عن قوله تعالى :

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوْسُ الشَّيَاطِيْن) ، وقال له : "إنما يقع الوعد والإيعاد (يعني في القرآن الكريم) بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف" ، فقال له أبو عبيدة : "إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم : أما سمعت قول امرئ القيس :

أ يقتلني و المشرفّي مُضاجعي ❖❖❖ و مسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ؟ ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك" ، وقد قال أبو عبيدة بعد ذلك : "وعزمت من ذلك اليوم أنْ أضع كتاباً في القرآن الكريم ، في مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة ، عملت كتابي الذي سمّيته : المجاز" (١٤) .

و- **الكتابة العربية (الضبط والإعجام) :**

وللخليل بن أحمد الفراهيدي جهد معلم في شكل الحروف على نمطها المتعارف الآن ؛ إذْ أنّ الخط العربي كان في صدر الإسلام خلوا من الشكل والإعجام، فجاء أبو الأسود الدؤلي ليجعل النقط ضبطا للحروف ، فعلامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة تحته ، وعلامة الضمة نقطة وسطه ، وجعل التنوين نقطتين ، ثم جاء نصر بن عاصم ، فأعاد النظر إلى الخط بتوجيه من الحجاج بن يوسف فأشار بنقط الإعجام بعد أنْ كانت الحروف كلها مهملة ؛ فوضع نقطة تحت الباء ، ونقطتين تحت الياء ، و واحدة فوق النون ، واثنتين فوق التاء ، وثلاثة فوق الثاء وهكذا ... فاختلط نقط الشكل بنقط الإعجام ، و وقع الناشئون والكبار أحياناً في لبس مما يقرؤون ، ولكن الله عزوجل هدى الخليل بن أحمد إلى أنْ يميّز بين الشكل والإعجام ؛ فجعل النقط للإعجام وحده ، أما الشكل فوضع له ما نعرفه الآن من علامات الفتحة ، والضمّة ، والكسرة ، والسكون ، والشدّة للمضعف ، والشرطتين للتنوين ، وجعل للهمزة رأس عين "ء" ، فكان مجموع ما تم له وضعه ثماني علامات ، هي : الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والهمزة والصلة حرف : "ص" والمدّة ، وترك كتابا يتضمن ذلك فلم يزد أحد عمّا فعل .. (١٥) .

ومع أنّ الخليل بن أحمد ، قد وضع هذا الشكل المريح ، فإنّ العلماء غيروا زمنا طويلا ، لا يجرءون على استخدامه في ضبط النص القرآني ، ويفضلون عليه النقط اتباعاً للسلف ، ويسمون ضبط الخليل شكل الشعر ؛ وكل ذلك لصيانة القرآن الكريم، عن أنْ يتعاوره المتعاورون بالتبديل والتغيير (١٦) .

يقول أبو عمرو الداني : "وترك استعمال شكل الشعر، وهو الشكل

الذي في الكتب ، الذي اخترعه الخليل ، في المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها ، أولى وأحقّ : اقتداءً بمن ابتدأ النقط من التابعين ، واتباعاً للأئمة السالفين" (١٧) .

وهكذا نرى أنّ القرآن الكريم ، كان محوراً لجميع الدراسات العربية ، التي قامت في الأساس لخدمته ، ومن بينها الدراسات اللغوية ، ولولاه لاندثرت اللغة العربية الفصحى ، وأصبحت لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية التي حلت محلها الهندية (١٨) .

ولله در ابن خلدون ؛ حيث قال في مقدمته : "تختلف لغة العرب لعهدنا ، مع لغة مضر ، إلا أنّ العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلنا ، حمل على ذلك الاستنباط والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ، ويدعونا إليه" (١٩) .

---

(١) فصول في فقه العربية : د.رمضان عبد التواب : ص/١٠٨ ، الطبعة السادسة – الخانجي بالقاهرة ، سنة ١٤٢٠هـ .
(٢) اللغات السامية : للمستشرق الألماني نولدكه ، ترجمة د.رمضان عبد التواب : ص/٧٩ – القاهرة سنة ١٩٦٣م .
(٣) فصول في فقه العربية : ص/١٠٩ .
(٤) علم اللغة بين القديم والحديث : د.عبد الغفار حامد هلال : ص/٣٢،٤٧ –بتصرف- ، الطبعة الثانية – مطبعة الجبلاوي ، سنة ١٤٠٦هـ ، والمدخل إلى البحث اللغوي : د.محمد السيد علي بلاسي : ص/١٢ الطبعة الأولى – المطبعة العصرية بيروت ، سنة ١٤١٩هـ .
(٥) فصول في فقه العربية : ص/١٠٩- ١١٠ .
(٦) المرجع السابق : ص/١١١ .
(٧) كتاب الزينة : لأبي حاتم الرازي ، تحقيق حسين الهمداني : ج/١ ، ص/١١٦ – القاهرة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨م .
(٨) الإتقان في علوم القرآن : لجلال الدين السيوطي : ج/١ ، ص/١١٩ – القاهرة سنة ١٣٦٨هـ .
(٩) علم اللغة : د.علي عبد الواحد وافي : ص/٧١- ٧٢ ، ط/٩ – دار نهضة مصر ، د.ت .
(١٠) علم اللغة بين القديم والحديث : /٥٣- ٥٤ .
(١١) سورة التوبة ، الآية/٣ .
(١٢) فصول في فقه العربية : ص/١١٢ ، وانظر هذه الرؤية في أخبار النحويين البصريين : للسيرافي ، تحقيق د.محمد عبد المنعم خفاجي وطه الزيني : ص/١٢ ، والفهرست : لابن النديم : ص/٦٦ - القاهرة ١٣٤٨هـ ، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء : لابن الأنباري : ص/٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة سنة ١٩٦٧م .
(١٣) فصول في فقه العربية : ص/١١٢- ١١٣ .
(١٤) يراجع : معجم الأدباء : لياقوت الحموي : ج/١٩ ، ص/١٥٨ – القاهرة ١٩٣٦م .
(١٥) مجلة الوعي الإسلامي : العدد/٢١٨ : ص/١٢١- ١٢٢ ، ولمزيد من التفصيل : يراجع : بحوث ومقالات في فقه العربية : د.محمد السيد علي بلاسي : ص/١١٣ وما بعدها ، الطبعة الثانية – وزارة الإعلام العمانية ، سنة ١٩٩٧م .
(١٦) فصول في فقه العربية : ص/١١٤ .
(١٧) المحكم في نقط المصاحف : لأبي عمرو الداني ، تحقيق الدكتور عزة حسن : ص/٢٧ – دمشق ١٩٦٠م .
(١٨) فصول في فقه العربية : ص/١١٥ .
(١٩) المقدمة : لابن خلدون : ص/٦١٥ ، ط/القاهرة سنة ١٣٢٧هـ .

الدعوة الإسلامية :

العلم بين تعاليم الإسلام وواقع المسلمين

بقلم: الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد
(جمهورية مصر العربية)

دعا القرآن الكريم في أكثر من آية إلى التفكير والتعقل والتدبر والمشاهدة واستخدام الحواس، وهي من أهم وسائل البحث العلمي، قال الله تعالى [سورة الجاثية آية : ١٣] {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} وقال الله تعالى {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ١٣] . وقال تعالى : {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} [سورة الملك آية: ٣] ، كما تضمنت آياته الدعوة لدراسة العلوم المختلفة ففي إشارة لدراسة الدين وفقهه قال تعالى :{فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [سورة التوبة آية: ١٢٢] ، ولدراسة نفس الإنسان والكون قال تعالى :{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ} [سورة فصلت آية: ٥٣] ، ولدارسة التاريخ وأحوال السابقين من الأمم والشعوب قال تعالى :{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [سورة يوسف آية : ١٠٩]، ولدراسة علم الحيوان قال تعالى{أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } [سورة الغاشية آية :٣٧] ، ولدراسة علم الفلك قال تعالى : {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} [سورة يس آية: ٣٧] ، ولدراسة علم الجغرافيا قال تعالى :{وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ } سورة الذاريات آية: ٢٠] ، ولدراسة الجيولوجيا قال تعالى :{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} [سورة فاطر آية : ٢٧] ، ولدراسة الكيمياء والفيزياء قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [سورة الحديد آية: ٢٥] ولدراسة علم النبات والزراعة، قال تعالى :{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ❖ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا} [سورة عبس الآيات: ٢٤ـ ٢٦] ، وأشاد القرآن الكريم بالعلم والعلماء فكان أول نداء فتح الله به على نبيه إيذانا ببدء الوحي، قوله سبحانه وتعالى :{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ❖ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ❖ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ❖ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ❖ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }[

سورة علق الآيات: ١ــ ٥] ، وبالعلم أعلى الله قدر آدم على الملائكة المقربين {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} سورة البقرة الآيات: ٣١ـ ٣٢] ... (١) .

وقد كثر من تردد المصطلحات التي تتعلق بالكتابة والقراءة والعلم والفكر والعقل التي تضمنتها الآيات القرآنية فقد وردت مادة كتب ومشتقاتها خمسا وعشرين وثلاثمائة مرة، ومادة علم ومشتقاتها إحدى وسبعين وسبعمائة مرة، ومادة قرأ سبعا وثمانين مرة، إلى جانب أن أدوات الكتابة وردت في السور المختلفة للقرآن الكريم، فذكرت كلمة الصحيفة ومشتقاتها ثماني مرات، وكلمة القلم والأقلام أربع مرات..... (٢) .

وقد ورد أمر الله باستعمال العقل في كثير من الآيات القرآنية، وذكرت مادة العقل تسعا وأربعين مرة، ومادة الفكر ثماني عشر مرة، وجاءت عبارة {أَفَلا تَعْقِلُونَ } ثلاث عشرة مرة، عبارة {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ثمانية مرات، وذكر لفظ {أولى الألباب} ست عشرة مرة، كما أن الفروض تشترط العقل لأدائها، وبقدر عقل المؤمن تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجار في النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} سورة الملك آية: ١٠] ، وإذا كان العاقلون وحدهم القادرين على استكشاف آيات الله في الكون والكائنات، فهم كذلك وحدهم يخشون الله حق خشيته، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} سورة الفاطرة آية: ٢٨] كما دعت السنة النبوية الشريفة إلى العلم واعتبرته جهادا، ففي الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع" (رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه)، وفي حديث آخر : "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة" (رواه مسلم) وفي حديث آخر :"طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". ولقد ذكر أمامه صلى الله عليه وسلم رجلان عالم وعابد فقال "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" (رواه الترمذي عن أبي أمامة) ...(٣) ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الوالدين أن يعلموا أولادهم، وأمر الذين يعرفون العلم، والذين لا يعرفون، أن يتعاونوا في طلب العلم، وأوصى الذين ليس لديهم علم، أن يتعلموا من جيرانهم الذين يعرفون العلم، ومن ذلك ما ورد عن عقلمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزى قال: "خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثني على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال :"ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، ومال بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولايتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم

ويتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعجلتهم العقوبة"(رواه الطبراني) ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بالأوامر والوصايا بل ترجمها إلى واقع عملي، فأرسل المعلمين الدعاة، إلى كل بلد من البلاد التي بلغتها دعوة الإسلام، ليعلموا الناس هناك، ومنهم أربعون معلما قتلوا في حادثة بئر معونة، ومنهم من أرسل إلى نجران واليمن، وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم، ببعث المعلمين الدعاة إلى أقوام مختلفة قبل الهجرة، ومن هؤلاء المعلمين الدعاة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم إلى المدينة، وأول قانون لمحو الأمية في المجتمع الإسلامي، كان بعد غزوة بدر الكبرى، حيث أسر المسلمون سبعين أسيرا، فكان يفادى بهم على قدر أموالهم، فمن لم يكن له فداء، وكان يجيد الكتابة، طلب منهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة، وكان هذا أول سنة نبوية لمحو الأمية الكتابية في المجتمع الإسلامي الجديد، وبعد ذلك صار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة أول مدرسة لتعليم المسلمين، وكان نتيجة لهذا النشاط العلمي والتعلمي ان الكتابة انتشرت في معظم جزيرة العرب تقريبا قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعندما اجتاز الإسلام حدود الجزيرة العربية، بفضل الدعوة والفتوح، ازداد النشاط العلمي، الذي ابتدأه الرسول، قوة واندفاعا، فعمت الحلقات العلمية المدينة ومكة والطائف وصنعاء والبحرين، وأسس الصحابة مراكز علمية جديدة في عواصم البلاد المفتوحة كالبصرة والكوفة وحمص ودمشق والقسطاط وغيرها، واستمرت المسيرة العلمية بعد ذلك في الاتساع كما وكيفا حتى عرفت أمة الإسلام بأمة العلم والمعرفة ...(٤) .

أما اليوم فقد وصل بنا الحال إلى ما نحن عليه في عداد الدول المتخلفة حيث يبلغ عدد الأميين في الوطن العربي حوالي ٥، ٣٥ مليون أمي من أصل ٨، ٨٠ مليون نسمة من السكان في مراحل العمر من ١٥ـ ٤٥ سنة، ومعنى الإحصائية أن نسبة الأمية مازالت مرتفعة .... (٥) .

الدولة	النسبة	الدولة	النسبة	الدولة	النسبة
الجزائر	٥٠	ليبا	٣٣	سوريا	٤٠
البحرين	٢٧	تونس	٤٦	مصر	٥٦
المغرب	٦٧	العراق	١١	اليمن الشمالي	٨٦
الأردن	٢٥	الكويت	٣٠	اليمن الجنوبي	٥٩
السعودية	٤٩	الصومال	٨٨		

الجدول السابق يشير إلى معدلات الأمية كنسبة مئوية لبعض الدول العربية عام ١٩٨٥م ... (٦).

ولا شك أن الأمية عقبة كؤود في سبيل التقدم الاقتصادي

والاجتماعي، فلابد أن نسير على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في محو الأمية، فلو أدرك المسلمون، الحديث السالف الذكر (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم .....الخ) لما بقي في العالم الإسلامي أمي واحد، ولو أن في كل حي من أحياء المدينة، وكل قرية من قرى الريف، مسلما متعلما واحدا، يعي مسئوليته التي لخصها رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الوعي، لشمر عن ساعد الجد، وبدأ في محو أمية الناس من حوله بادئا بمن يليه أهلا ورفاقا وخدما ويستلزم أيضا دعوة المتعلمين على مختلف مستوياتهم إلى التطوع لمحو الأمية، ويمكن الاستفادة في ذلك من أئمة المساجد و وعاظها ومن موظفي الدولة في أوقات فراغهم ومن المحالين إلى التقاعد ممن تعينهم ظروفهم الصحية على ذلك، ومن الطلاب خلال العطلات، ومن وسائل الإعلام المتطورة كالتلفزيون على وجه الخصوص، ومن مباني المدارس والمعاهد التعليمية المختلفة في غير أوقات الدارسة، ونفس الشيء بالنسبة للمساجد ودور العبادة المختلفة، يصحب كل ذلك التأكيد المستمر على أن هذه المهمة من المهمات الشريفة التي يقوم بها المسلم ويتقرب بها إلى الله.... (٧) .

ومما لا شك فيه أن العلم هو العمود الفقري لأي تقدم في شتى مجالات الحياة، ولكي تنهض أمة الإسلام من كبوتها فلابد أن تسلك طريق العلم، فبالعلم نستطيع إعداد الأسلحة المتطورة والمتقدمة والتي تفوق أسلحة أعداء الإسلام لأحياء فريضة الجهاد ومجابهة الكفر والشرك. وبالعلم يمكن ترشيد ما بأيدينا من إمكانيات ونعم وطاقات وخامات وعدم ضياعها فيما لا يفيد أو استترافها في منتجات لا تسهم في إثراء الحياة الإنسانية أو استغلالها في مجال يقل العائد منه عن غيره، والاستخدام الأمثل للموارد يستلزم دراسات وأبحاثا يقوم بها متخصصون وعلماء. وقد كان واضحا وجليا منذ بدء الدعوة الإسلامية التوجيه إلى ترشيد الطاقات، فالانتقال من مرحلة السرية إلى الجهرية بالدعوة، والتدرج في الأمر بالفروض وأركان الإسلام والأحكام، كلها تقع تحت التوظيف الأمثل للوقت، والحالة التي عليها الأمة للانتقال بها من مرحلة إلى أخرى في طريق إعدادها وتربيتها إسلاميا، وكذلك المفاضلة في صفوف المؤمنين بين المجاهدين بالأنفس والأموال، والقاعدين. وكذلك المفاضلة بين الجهاد أو السعي في الأرض وبين التفرغ للعبادة والاعتكاف. وكذلك المفاضلة في الإنفاق بين الأهل والأقارب والجيران وبين سائر المستحقين للصدقة والمعروف. والمفاضلة بين أهل الرخص وأهل العزائم، كلها تشير إلى استخدام الإمكانيات سواء مالية أو نفسية مادية أو معنوية، أفعالا أو أقوالا، في الوجهة التي تعود على المسلم بأكثر النفع، على الرغم من أنها كلها عبادات سيثاب

المؤمن على فعلها، وناهيك عن مقدار الخام الذي يمكن توفيره إذ تم ترشيد استخدامه، وإدارة الشركات والمصانع على أسس من البحث العلمي يرفع الكفاءة الإنتاجية، ويزيد الإنتاج؛ وتكثيف الدورات التعليمية والتدريبية للعمال يرفع جوده الإنتاج ويرفع الكفاية الإنتاجية، والكفاءة العمالية تخدم الدولة لأنها تحقق زيادة في الإنتاج القومي، وتساهم في زيادة الأرباح الصناعية لأصحاب رؤوس الأموال، وتسمح برفع أجور العمال وخفض أسعار المنتجات، ولذلك يجب ربط مواقع الإنتاج بمراكز البحث العلمي .

وبالعلم يتيسر لنا استكشاف الخامات والمعادن في باطن الأرض واستخراجها بأقل التكاليف الاقتصادية، وبالعلم يقضى على الأمراض والأوبئة التي تهدد صحة الإنسان وتعطله عن الإنتاج والعمل، وبالعلم يمكن تحويل الأراضي الصحراوية والبور إلى أراضي زراعية تكفي حاجتنا الغذائية، وبالعلم يمكن المحافظة على الثروة الحيوانية والسمكية وتنميتها، وبالعلم يدرس الفلك والنجوم والكواكب وهي مسخرات ما زالت غنية بالمعرفة والثروات التي تسد حاجات الإنسان، وبالعلم يمكن القضاء على الصعوبات والمشاكل التي تستهلك طاقة الإنسان وتعيقه عن الاستفادة بها فيما يعود بالنفع عليه وعلى مجتمعه، وبالعلم يفتح مجالات جديدة للعمل والإنتاج وزيادة الرزق. وبالعلم نتحرى الحلال في أرزاقنا، فتعم البركة، فيجب على من تصدى للكسب أن يكون عالما بما يصحح كسبه أو يفسده لتقع معاملته صحيحة وتصرفاته بعيدة عن الفساد، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهن كان يطوف بالسوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه وإلا أكل الربا شاء أم أبي..... (٨) ، وأي علم أو عمل يحتاج إليه المسلمون في دينهم ودنياهم فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية تأثم الأمة كلها إذا فرطت به .

وإذا كان العلم وسيلة من وسائل زيادة الرزق، ولكن مصدر النعمة سواء نعمه العلم أو نعمة المال، هو الله، ويجب ألا نغفل عن ذلك، قال تعالى :{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ❖ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ❖ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [سورة القصص الآيات: ٧٦- ٧٨] ، لقد كان قارون من قوم موسى، وآتاه الله مالا كثيرا ، وقد بغى قارون على قومه، وحاول قومه نصحه، ولكن كان جوابه قَالَ {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [أي إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، إنها مقولة المغرور المطموس الذي ينسى

مصدر النعمة ويفتته المال ويعميه الثراء، وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن عمله وكده هما وحدهما سبب غناه .... (٩) وقال تعالى في لسورة الزمر آية: ٤٩] {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} قالها قارون، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة، يعلل بها ما قدر له من مال أو سلطان، غافلاً عن مصدر النعمة وواهب العلم والقدرة ومسبب الأسباب ومقدر الأرزاق، ولكنها هي فتنة للاختبار والامتحان ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر، وإن كان سيصلح بها أم سيفسد، ولكنها هي ذات هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم فانتهت بهم إلى السوء والوبال ولم يغن عنهم علمهم، ولا مالهم ولا قوتهم شيئاً، وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين، فسنة الله لا تتبدل، قال تعالى :{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ❖ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} الزمر :٥٠-٥١]..... (١٠) وقارون ذاته لم يجهر بكلمة الكفر، ولكن اغتراره بالمال، ونسبته ما عنده من العلم إلى نفسه، جعله في عداد الكافرين، ومن ثم استحق عقاب الله، قال تعالى في [سورة القصص آية: ٨١] {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ} .....(١١) فمهما بلغت درجة الإنسان من العلم، ومهما حصل عليه من درجات علمية، فعليه ألا ينسى فضل الله عليه، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي ييسر السبل ويهدي إليها، ليتعلم الإنسان، وهذا كله هو أقل القليل، وما زال الإنسان يجهل الكثير أو كما قال تعالى :{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [سورة يوسف : ٧٦] ، وقال : {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الأنعام : ٨٠]، وقال :{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} لسورة البقرة آية: ٢٥٥ .....(١٢) .

المراجع :

(١)، (٣) (١٢) الإطار الأخلاقي لمالية المسلم، قطب إبراهيم محمد ص: ١٤٥- ١٥٠.
(٢)، (٤) (٧) مجلة منار الإسلام العدد: ١١ للسنة ١٦ ذو القعدة عام ١٤١٢هـ الموافق ١٥/مايو ٩١م .
(٥) جريدة الحياة العدد : ١٠٠٥٩ الخميس ١٦/ أغسطس عام ١٩٩٠م الموافق ٢٥/محرم عام ١٤١١هـ .
(٦) مجلة ميركوري العدد: ١٣، أبريل عام ١٩٩٠م.
(٨) فقه السنة السيد سابق ج/٣، ص: ٤٤- ٤٥ .
(٩)، (١١) في ظلال القرآن سيد قطب ج/٥، ص: ٢٧١٢- ٢٧١٤ .
(١٠) في ظلال القرآن سيد قطب ج/٥، ص: ٣٠٥٦.

أهمية مكارم الأخلاق في ترسيخ الفكر الدّعوي

بقلم : أ.د. عبد القادر سلامي
قسم اللغة العربية وآدابها : كلية الآداب واللغات : جامعة تلمسان - الجزائر

لئن دلّ المشترك الثقافي على الاعتقادات التي يتقاسمها أفراد البيئة اللغوية والمعلومات التاريخية ، والأفكار والأعراف المشاعة بينهم ، فإنه يظلّ المعين على فهم مضمون : قال تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ❖ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ ❖ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) ، ومضمون قول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم رداً على الأعرابيّ الذي جاءه النبيّ : فقال : "علّمني عملاً يُدخلني الجنة ... فقال : أعتق النَسَمَة وفُكّ الرقبة ، قال: أوَليسا واحداً ؟ قال : لا ، عِتْق النَسَمة أن تنفرد بعتْقها وفَكّ الرقبة أن تُعين في ثَمَنها" ، فدلّ ذلك على أنّ التشريع الإسلامي يقوم على صون النفس البشرية من منطلق مكارم الأخلاق ، والتعايش السلمي بين البشر ، كما أنّ فهم عبارات مثل: "فلان جبان الكلب" و "مهزول الفصيل" و "تجمّد بينهم الجليدُ" ونحو ذلك مما هو مرتبط بالحياة الاجتماعية أوله صلة بثقافة المجتمع الدينية أو السياسية أو الاجتماعية بوجه عامّ .

وتسعى المداخلة الموالية إلى استعراض نماذج من المشترك الثقافي بما تمليه مضامين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والأعراف المشتركة ، دالين بذلك على مكارم الأخلاق من منظور إسلامي .

أولاً – مفهوم الأخلاق :

١- **لغة :** الأخلاق جمع خلق ، والخلق التقدير وقيل الخلق هو الدين والطبع والسجية وجاءت الخلق بمعنى المروءة ويقال خالص المؤمن وخالق الفاجر، ويقال رجل متخلق أي حسن الخلقة ، ويقال رجل له خلق حسن وخليقة : وهي خلق عليه من طبيعة ، وتخلق بكذا كأنما خلق وطبع عليه ويقال امرأة خليقة أي ذات خلق وجسم (١) .

٢- **اصطلاحا :**

حقيقة الخلق هو أنه وصف لصورة الإنسان الباطنية وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة وقيل الخلق عبارة عن هيئة في النفس عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا (٢) .

وهناك من ذهب إلى أن الأخلاق من الخلق وهو حال النفس به يفعل

الإنسان أفعاله بلا رؤية ولا اختيار والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد وقد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمد كالشجاعة والعلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة ، وكثير من الناس من يوجد فيهم ذلك ، أما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والشر فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم (٣) .

ثانيا – الأخلاق في الفكر اليوناني :

لم يعر الفلاسفة اليونان الأولون الأخلاق التفاتاً كبيراً بل كانت جل أبحاثهم حول الطبيعيات ، فالأخلاق عندهم مجموعة من الحكم والنصائح والأقوال المأثورة تجري على ألسنة الشعراء والحكماء في بعض جوانب الأخلاق لا تبلغ في الإحاطة والتماسك ما يجعلها علماً قائماً بذاته له منهجه وأسسه حتى جاء السفسطائيين (*) (٤٠٠- ٤٥٠ق م) "وهم طائفة من الفلاسفة كانوا معلمين متفرقين في البلاد مختلفين في الآراء لكن يجمعهم غرض واحد هو إعداد الشبان اليونان ليكونوا وطنيين صالحين، أحراراً يعلمون ما يجب عليهم لوطنهم" (٤) ، ولقد أداهم النظر في هذه الواجبات إلى النظر في أصول الأخلاق واستتبع ذلك نقلاً بعض التقاليد والتعاليم التي يجري عليها سلفهم ، ثم جاء سقراط (٣٩٩- ٤٦٩ق م) الذي وجه همه إلى البحث الأخلاقي ، ويعد بذلك أول مؤسس لعلم الأخلاق وعلى إثره ظهرت فرق ومذاهب أخلاقية متنوعة أهمها الكلبيون والقورنيائيون ، أما الكلبيون فمؤسس مذهبهم "أنتستيس" (٣٧٠- ٤٤٤ق م) ومن تعاليمهم أن الآلهة منزهة من الاحتياج وخير الناس من تخلق بأخلاق الآلهة (٥) ، في حين أن القورنيائينين (**) الذين تزعمهم رسطيس كانوا يرون أن طلبة اللذة والفرار من الألم هو الغاية الوحيدة من الحياة ، وأن العمل يسمى فضيلة إذا كان يحقق لذة أكبر من تلك التي يحققها الألم (٦) وخطى أفلاطون (٣٤٧- ٤٢٧ق م) على خطى أستاذه فجاءت آراؤه الأخلاقية ممزوجة بأبحاثه الفلسفية التي تقوم على نظرية المثل (٧) .

وقد بحث أرسطو طاليس (٣٢٢- ٤٨٤ق م) في الأخلاق وألف فيها وتعد نظرية الأوساط أهم ما توصل إليه (٨) ، وعلى الرغم من القطيعة التي حدثت بين الفلاسفة وعامة الأوربيين في القرن الثالث الميلادي بسبب انتشار النصرانية التي روجت فكرة "أن الله مصدر الأخلاق فهو الذي وضع لنا قواعد نراعيها في معاملاتنا قصد التمييز بين الخير والشر ، والخير كل الخير في إرضاء الله (٩) ، وعلى الرغم كذلك من أن القديسين قاموا مقام الفلاسفة اليونانية ، إلا أن إشعاع هؤلاء الفلاسفة (سقراط وأفلاطون وأرسطو) ظل يخطف أبصار الباحثين

ولا يزال المنهل الأساسي لمعظم فلاسفة العصر الحديث وهذا ما جعلنا نتعرض لآرائهم في الأخلاق دون سواهم .

ثالثا – الإسلام وفكرة الأخلاق :

سنتناول في هذا المبحث مفهوم الأخلاق في الإسلام وأصولها وأسسها ثم نتحدث عن الأخلاق القرآنية ومكانتها في القرآن الكريم والأخلاق السنية والغاية من الأخلاق ومدى ضرورتها للمجتمع والفرد وفي الأخير نتحدث عن واقعية الأخلاق الإسلامية .

١- مفهوم الأخلاق في الإسلام :

الأخلاق في الإسلام مبادئ وقواعد منظمة للسلوك الإنساني التي يجددها الوحي لتحديد حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه (١٠) ، ويكتسي النظام الأخلاقي طابع إلهي مرده الله وأكد ذلك القرآن الكريم الذي حث الإنسان على تطبيقه بقلبه وروحه وإرادته الخيرة الخالصة لوجه الله تعالى وطابع إنساني يتدخل الإنسان في تنظيمه من منطلق اجتهاده بما يوافق روح الإسلام ، أضف إلى ذلك أن الأخلاق نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة كطريقة التعامل مع أي كان إنساناً أو حيواناً ، ولا تقتصر الأخلاق في الإسلام على الجانب النظري فقط بل هي تكامل بين الجانبين النظري والعلمي ، كما أن النظام الأخلاقي ليس جزءً من النظام الإسلامي العام فحسب بل إن الأخلاق جوهر الإسلام وروحه السارية في جميع جوانبه ، فالنظام الإسلامي عموماً مبني على فلسفته الخلقية أساساً ومصداق ذلك قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" (١١) فقد قصر النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم هدف رسالته في هذا الحديث على أخلاق وأنه جاء ليتم البناء الأخلاقي الذي بدأته الرسالات السابقة به ، كما قال في حديث آخر : "مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء" (١٢) ، وكانت عائشة رضي الله عنها تفهم هذا المعنى من الدين الإسلامي ولهذا قالت عندما سئلت عن أخلاق النبي الحبيب ، قالت : "كان خلقه القرآن" ، ويؤكد ذلك قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أيضاً : "إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً" (١٣) ، وذهب بعضهم إلى أن الأخلاق هي علم الواجبات أي العلم الذي يعرف الإنسان الواجبات كما يجب أن يفعلها ، ومن ثم كان إطلاق الأخلاق على الدين في اللغة كما سبق في الاصطلاح أحياناً كما بينا ، ومن ثم كان هدف الإسلام تحقيق غاية أخلاقية تقترن بالعبادات والمعاملات والسلوك العام وأصدق

دليل على ذلك قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ❖ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ❖ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ❖ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ❖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ❖ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١٤) ، فأصحاب الخلق الحسن هم هؤلآء الذين يؤدون تلك الواجبات

والبر كما جاء في الآية الكريمة لا يتحقق دون الإيمان والعبادة ، والبر هو الأخلاق والعمل سواء كان لخدمة الذات أو لخدمة الإنسانية ، ولم يكتف الإسلام بإضافة الصفة الأخلاقية على نوع السلوك ولو لم يتسم بصفة النفع أو الضرورة ، لأن الأخلاق في نظر الإسلام لا تحمل معنى النفع فحسب بل تحمل إلى جانب ذلك المعنى التحسيني والجمالي (١٥) ، ومن ثم لم يكن هدفه تحقيق النفع للإنسان فقط بل تحقيق الحياة الأدبية التي تمتاز بها حياة الإنسان على حياة الحيوان ولهذا نرى الإسلام يأمر بالأدب في المأكل والمشرب ، والملبس والمجلس ، والحديث ، ومعاشرة الناس ، ولم يفرض الإسلام المبادئ الأخلاقية على سلوك الإنسان الظاهري بل فرضها على السلوك الباطني ، فالأخلاق الإسلامية مركزة على الحياة الباطنة في الدرجة الأولى ، لأنها إذا صلحت واستقامت صلحت الأخرى واستقامت ، وصلاح هذه وتلك هي الطريق إلى السعادة الإنسانية ولهذا قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" (١٦) ، ومن هنا دعا الإسلام إلى تجميل الباطن وتحسينه ، فدعا إلى حسن الظن بالخالق وحسن الظن بالمخلوق ، كما جعل من المحبة والتفاؤل والقناعة والرضى منابع البهجة والنشاط والعادة الأزلية ، ومن خلال ما ذكرناه تبقى الأخلاق روح الرسالة الإسلامية ، وقد فهم هذه الروح الأخلاقية في الإسلام أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب الذي قال عندما دعا قومه للإسلام : "إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنا" (١٧) ، ويتضح أخيرا أن الأخلاق الإسلامية تحاول إخضاع كل سلوك ما ظهر منه وما بطن لروح الأخلاق التي جاء بها ، وهي تستهدف من وراء دلك صلاح الإنسان وسعادته في هذه الحياة والحياة الأخرى .

رابعا- الأخلاق القرآنية :

تؤكد الآيات القرآنية الكريمة أنّ الفلاح الخلقي لا يتم إلا بالإيمان والالتزام الكامل بالقرآن الكريم قولاً وعملاً وعدم الفصل بينهما ، فإذا كان القرآن الكريم كتاب عقائد وعبادات ومعاملات وتشريع فإنه يحتوي كذلك

على أمّهات الأخلاق وأصولها (١٨) كفضيلة العدل ، لقوله عزوجل : (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (١٩) ، والصبر يقول تعالى : (وَاصْبِرُوا ❖ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (٢٠)، والوفاء بالعهود قال تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) (٢١) ، فالقرآن لا يزال هو المشعل الوحيد الهادي للبشرية نحو السعادة التي ينشدها الإنسان ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ❖ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (٢٢) ، فالأخلاق القرآنية وجهت دوافع الإنسان توجيها نحو الخير انطلاقا من الشعور الخلقي القائم على طهارة القلب الذي يميز بين الحق والباطل ، قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ❖ وَهُوَ شَهِيدٌ) (٢٣) ، والآيات القرآنية التي خاطبت القلب والوجدان خاطبت العقل كذلك ، ولم يهمل هذا الجانب من الحياة الخلقية ، لأن القوة العقلية في الإنسان هي التي تعقل تصرفاته وتميز الخير من الشر والحق من الباطل لقوله عزوجلّ : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ❖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ❖ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ❖ وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ❖ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ❖ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (٢٤)، ولكن هذه النفس البشرية التي ذكرها الله عزوجلّ في قوله : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ❖ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ❖ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٢٥) قد ارتبطت دوما بالإرادة الخيرة المتمثلة في تهذيب دوافعنا الشريرة ولم يترك الله هذه النفس البشرية بلا ضابط ولا معيار بل أشار إلى هذه الحقيقة النفسية في قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ❖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (٢٦) ، فالأخلاق الإسلامية تدعو إلى التجرد من الأهواء ومقاومتها ، لأن الطبيعة البشرية تحكمها الأهواء ، والآية الكريمة تدعو إلى تهذيب النفوس قصد محاربة الرذائل .

خامسا- مكانة الأخلاق في القرآن :

الأخلاق قوام ديننا الحنيف وذلك باعتبار أوجه عديدة نذكر منها على سبيل المثال (٢٧) :

أ- تعليل الرسالة بتقويم ونشر مكارم الأخلاق جاء عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" (٢٨) .

ب- تعريف الدين نفسه بحسن الخلق لما ثبت عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن رجلاً جاء إلى النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما الدين ؟ قال : "حسن الخلق" فحسن الخلق أساس من أسس الإسلام الذي لا قيام للدين بدونه ، مثله مثل الوقوف بعرفات في الحج أي أن الركن الذي لا

يكون الحج إلا به .

ج- من أكثر ما يرجح كفة الحسنات يوم الحساب محاسن الأخلاق فقد نقل عن سيد الخلق أجمعين قوله صلى الله عليه وسلم : "ما من شئ أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق" (٢٩) .

د- المؤمنون يتفاضلون في الإيمان فهم في درجات وأفضلهم أحسنهم أخلاقاً قيل: يا رسول الله ! أي المؤمنين أفضل إيمانا ، قال:"أحسنهم خلقاً" (٣٠) .

هـ- الأقرب منزلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة والأكثر ظفراً بحبه الحريص على أن تكون أخلاقه من أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لا تشوبها شوائب جاء في الحديث الشريف : "إنّ أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً" (٣١) .

و- إذا كان حسن الخلق أمراً لازماً لصحة إيمان الفرد فإنه شرط لا غنى عنه للنجاة من النار والفوز بالجنة لهذا فالتفريط فيه لن يكمله حتى الصيام والصلاة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم" (٣٢) .

= كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو الأحسن أخلاقاً إذا دعا ربّه قال: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي" (٣٣) ، وقوله أيضاً صلى الله عليه وسلم : "اللهم اهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت" (٣٤) فما عساه يكون الدافع إلى دعائه صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك ، والمعلوم عنه أنه الأكرم والأحسن خلقاً إلا حرصه على مكانة الأخلاق في ديننا الحنيف .

= مدح الله عزوجلّ رسوله بحسن الخلق في قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٣٥) ، والله لا يمدح رسوله إلا بالأمر العظيم الشأن وتنطبق منزلةً الأخلاق السامية على ذلك .

= كثرة الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الأخلاق أمر بالجيد ومدخل للمتصفين به تبيانا لثوابهم ونهياً عن الرديئ منها وذماً للمتصفين بها وإبرازا للعقاب ، ولا شك أن كثرة الآيات في الأخلاق تدلّ على أهميتها ومما يزيد في هذه الأهمية أنّ آيات منها نزلت في مكة قبل الهجرة ومنها ما نزل في المدينة بعد الهجرة النبوية وذلك إنما يعكس أهمية الأخلاق التي لا غنى للمسلم عنها فمراعاة الأخلاق تلزم المسلم في جميع الأحوال فهي تشبه أمور العقيدة من جهة عناية القرآن بها في السورة المكية والمدنية على حدّ سواء ولا غرم أن هذه المكانة العالية للأخلاق تجعلها حرية بأن تكون في مستوى مرتبة الصلاة والصوم والحج وعلى كل مسلم التشبث بها وجعل النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم قدوته فيها .

سادساً- الأخلاق السنية :

إن القرآن الكريم هو كتاب الإيجار والإعجاز ، فليس من الطبيعي أن يحلّل جميع القضايا الأخلاقية ، فالأخلاق القرآنية يجسدها الرسول الكريم في تصرفاته ومعاملاته ولقد قال عزوجلّ في حق رسوله المصطفى واصفاً شمائله الخلقية ، قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٣٦) ، ويلخص النبي رسالته في قوله : "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" (٣٧) ، فكانت سيرته عليه الصلاة والسلام مرتبطة ارتباطاً شاملاً بأخلاق القرآن فقد أجابت أم المؤمنين رضي الله عنها عندما سئلت عن أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قالت : "كان قرآناً يمشي" ومن هذا الارتباط نلاحظ الارتباط الوثيق بين القرآن والسنة وفي ضوء هذا يظهر الدور الفعال الذي قام به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في إرساء أصول الأخلاق الإسلامية الشاملة وهكذا تصبح السنة حجة على كل المسلمين بحيث يجب اتباعها لقوله عزوجلّ : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ❖ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ❖ فَانْتَهُوا ❖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ❖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (٣٨) وقد تجمعت في الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم المثل العليا : الشجاعة ، الكرم ، البر، الإخلاص ، الصبر ، وجميع الأخلاق الفاضلة .

سابعاً- الغاية من الأخلاق وضرورتها في المجتمع :

يبحث علم الأخلاق عن معنى الخير والشر ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس مع بعضهم البعض ونشر الغاية التي ينبغي أن يقصدوا إليها وأعمالهم ، وينير السبيل لعمل ما ينبغي (٣٩) ، ولقد حدّد الإسلام غاية الأخلاق التي ينبغي أن يتم العمل الأخلاقي في ظلها ، بأن يريد الإنسان من عمله وجه الله وأن يعمل لأن هذا العمل أراده الله منه لا أكثر ولا أقل (٤٠) ، قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ❖ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ❖ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ❖ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ❖ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) (٤١) وقوله أيضا: (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ❖ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ❖ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(٤٢)،ويقول تعالى في آية أخرى:(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ❖ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ❖ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (٤٣).

فبالإضافة إلى جعل الله غاية للأخلاق وابتغاء وجهه فإنه قد ربط بين هذه الغاية وبين خيرية الأخلاق والجزاء في الآخرة ، ولا شك أنّ الأخلاق هي الدعامة الأولى في بناء كل مجتمع سليم وحفظ كيان الأمم من كل خلل وفساد ومن أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء الحث على الأخلاق في الحياة الدنيا والفوز بالنعيم الأخروي (٤٤) ، لهذا فإنّ الأخلاق الإسلامية لها أهمية كبيرة في حياة الإنسان فتحقق لهم التقدم الحضاري والاجتماعي في جميع مجالاته لأن

التحلي بالأخلاق الفاضلة كالعدالة ، والمساواة ، والتعاون ، والأمانة ، والإخلاص ، والصدق ، والعفة ، والاحترام ، والنزاهة ، والإخاء ، والمحبة ، والمودة وما إلى ذلك من الأخلاق التي حثّ عليها القرآن قال الله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ❖ وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (٤٥) ، وقوله تعالى : (وَقُلْ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ❖ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ❖ وَاجْعَلْ لِّي مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً) (٤٦) ، والابتعاد عن الرذائل التي تفسد نظام المجتمع كالسرقة في قوله تعالى : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ❖ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (٤٧) ، وكذلك الغش : هذه الرذيلة التي إذا توغلت داخل المجتمع انعدم الأمان والثقة والصدق والطمأنينة حيث يقول عزوجلّ : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ❖ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (٤٨) يؤدي حتما إلى تكوين مجتمع فاضل يسير في اتجاه سليم معين وهو اتجاه التقدم في بناء الأفراد ثمّ بناء الحضارة على اسس أخلاقية ، من خلال هذا كله تتحقق السعادة في مختلف مستوياتها في الحياة الدنيا بالعيش في اطمئنان وأمان والحياة الأخرى بالفوز بالجنة ونعيمها ، قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : "إنّ أحبكم إليّ وأقربكم منّي منزلة يوم القيامة أحسنكم خلقا" (٤٩) .

ثامنا- واقعية الأخلاق الإسلامية والفكر الدعوي :

هذا ، لئن دلّ المشترك الثقافي على الاعتقادات التي يتقاسمها أفراد البيئة اللغوية والمعلومات التاريخية ، والأفكار والأعراف المشاعة بينهم ، فإنه يظلّ المعين على فهم مضمون ما رواه أبو سليمان الخطّابي (ت٣٨٨هـ) فقال : "حدثني عبد العزيز بن محمد المسكني قال : حدثني إسحاق بن إبراهيم قال : حدثني سويدنا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثني طلحة اليامي قال : حدثني عبد الرحمن بن عَوْسَجَة عن البَرَاء بن عازب : أنّ أعرابيا جاء النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقال: علمني عملا يدخلني الجنة ، فقال : اعْتِقِ النَسمَة وفُكّ الرقبة ، قال : أوَليسَا واحدا ؟ قال : لا ، عتْقُ النسمة أن تنفرد بعتْقها وفكّ الرقبة أن تُعينَ في ثمَنها ، فتأمّل كيف رتّب الكلامَين واقتضى من كل واحد منهما أخصّ البَيانَيْن" (٥٠) .

ومن المتأخرين نذكر الشاطبي (ت٧٩٠هـ) على سبيل المثال الذي يرى "أنه لابدّ في فهم الشريعة من اتّباع معهود الأميين ، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان العرب في لسانهم عُرْف مستمرّ فلا يصحّ العدول عنه في فهم الشريعة ، وإن لم يكن ثمة عُرْف فلا يصحّ العدول عنه في فهم الشريعة ، وإن لم يكن ثمة عرف فلا يصح أن يجري فهمها على ما لا تعرفه ، وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأساليب ، مثال ذلك أنّ معهود العرب أنْ لا ترى الألفاظ تعبُّداً عند

محافظتها على المعاني ، وإنْ كانت تُراعيها أيضاً ، فليس أحدَ الأمرين عندها بملتزم ، بل قد تبني على أحدهما مرة ، وعلى الآخر أخرى ، ولا يكون ذلك قادحاً في صحّة كلامها واستقامته، والدليل على ذلك أشياء : أحدهما : خروجها في كثير من كلامها عن أحكام القوانين المطردة ، والضوابط المستمرة ؛ وجريانها في كثير من منثورها على طريق منظومها ، وإنْ لم يكن بها حاجة وتركها ما هو أولى في مراميها ولا يعد ذلك قليلا في كلامها ولا ضعيفا بل هو كثير قوي وإن كان غيره أكثر منه ، والثاني : أنّ من شأنها الاستغناءُ ببعض اللفظ عمّا يُرادفها أو يُقاربها ولا يُعدّ ذلك اختلافا و لا اضطراباً ، إذا كان المعنى المقصود على استقامةٍ ، و الكافي من ذلك نُزول القرآن على سبعةِ أحرُفٍ" (٥١) .

وهنا يجب الإقرار بأنّ الاكتفاء بالتحليل اللغوي المحض المقتصر على المعنى المعجمي والوظيفي على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي قد يؤدّي إلى قصُور في فهم الخطاب فهما كاملا ، ففي قوله تعالى : (وَقَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ❖ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ) (٥٢) ، وفي قوله : (وَهَلْ نُجَازِيَ إِلاَّ الْكَفُورَ) (٥٣) نجد أن الخطاب خارج عن الدلالة اللغوية الحرفية ، وذلك أنّ الاستفهام(❖) في الآية الأولى للتقرير: وهو حمل المخاطب على ما يعلمُ ثُبوته أو نفيه ليُثبته على فعله فيكون جزاءا ، أو يتحقق أنه فعله عن قصد (٥٣) وفي الثانية للنفي حتى جاز أن يجيء بعدها "إلاّ" قصداً للإيجاب ، والتقدير : ما نجازي إلا الكفور (٥٤) .

وليس في مقدرة التحليل اللغوي على المستويات المذكورة أن يعطينا هذا الفهم إذا تغاضينا عن السياق الثقافي الذي يدلنا على أنّ الاستفهام الحقيقي لا يصدرُ عن الله تعالى ، لأنّ الاستفهام طلب الفهم ، وهو يقتضي الجهل والله عزوجلّ مُنزّه عن ذلك، الأمر الذي يدعو إلى التماس معنى آخر للكلام ، وما جعلنا نجزم بأن الاستفهام في الآية الأولى للتقرير ، وفي الآية الثانية للنفي هو علمنا بحال المخاطبين (٥٥) .

والجدير بالذكر هنا أنّ اللغويين القدماء لم يفتهم إدراك أهمية السياق الثقافي ، فهذا أبو عمر الزاهد (ت٣٤٥هـ) يروي في (باب من المعرّب) عن ثعلب (ت٢٩١هـ) عن ابن الأعرابي (ت٢٣١هـ) والمبرد (ت٢٨٥هـ) عن البصريين جميعا ما يبيّن اشتراك العرب في المعتقدات المشتركة والأعراف المشاعة بينهم ، فهم يسمون الذي يكون مع العروس في زفافها اليهودية أو النصرانية أو المجوسية : (العُجَاهِن) وهو رجل يُقام بين الهَنْبازين (٥٦) فيُضربُ بقضْبان من الآس (❖) ويأتي الرجل إلى العروس فتمنعه فيصيح : يا عُجَاهِن ، فيصيح العُجَاهن : ارحميني ارحميني ، فلا تزال تسمع كلامه حتى تضحَك فتسترْخي فيفتَحها ،

وأنشداني جميعاً :

ارْجِعْ إلى بيتك يا عُجَاهِنُ ❖❖❖ قد انقضى العُرْسُ و أنتَ راهنُ (==)

... فإذا فتحها زَوجها تلك الليلة يُقال : "باتَتْ بليلةٍ شَيْبَاء" (+) مضاف (++) وإذا لم يفتحها قيل : "باتتْ بليلة حرّة (٥٧) مضاف أيضاً" (٥٨) .

أما المعجم العربي فقد كان مدركاً لدور السياق الثقافي المفضي إلى الفكر الدعوي في صوغ الدلالة وهو ما نقف عليه في تعليق لابن سيده (ت٤٥٨هـ) على قول أبي عليّ الفارسي (ت٣٧٧هـ) أورد في (باب المعرفة والعلم) من مخصصه جاء فيه "ومما هو ضرب من العلم قولهم : اليقين ولا ينعكس فنقول : كلّ يقين علم وليس كل علم يقيناً ، وذلك أن اليقين علم يحصُلُ بعدَ استدلال ونظرٍ لغُمُوض المعلوم المنظور فيه أو لإشكال ذلك على الناظر ، فليس كل علم يقيناً ؛ لأن من المعلومات ما يُعلم من غير أنْ يعتَرض فيه توقف أو موضع نَظَرٍ" (٥٩) فدلّ بذلك على أن العلم : "عبارة عن حصول معنىً في النفس حصولاً لا يتطرّق إليه احتمالٌ كونه على وجه غير الوجه الذي يحصل عليه" (٦٠) فقال علي ابن سيده معللاً ومستنتجاً ومؤيّداً لهذا المذهب في التفسير: "ولذلك قالت الأوائل : إنّ اليقين هو العلم الثاني ، أي أنه لا يُعلم ولا يُدرك عن بديهةٍ ، ولكنه بعد بذْل الوُسع في التعقب وإنعام النظر والتصفح ، يعني ما يُعلم ببدائه العُقول والحواس كالقضايا المنقسمة إلى أربعة أقسام ، وهي : المعقول كقولنا : العقل مُدرك لما أُعمل فيه ، والمحسوس كقولنا : الشمس طالعة أو غربة ، والمشهور كقولنا : إن شُكر المنعم حسن وكُفرة قبيح إن برّ الأبوَين لازم ، والمقبول : وهي القضيّة التي تُؤخذ عن واحد ثقة مُرتضى أو جماعة ثقات مُرتضين ، فهذا كله من المقدمات التي حصلت في النفس من غير بحث ولا قياس" (٦١) ، واليقين ، في نظر ابن سيده ، لا يتأتي إلا بالإدراك الذي هو عِلم يقوم على التأمّل والتصفح والمقابَلة بين معاقد الرأي ومقاصده (٦٢) .

ويبقى السياق الثقافي هو الكفيل بفهم عبارات مثل : (فلان جبان الكلب) و (مهزول الفصيل) و (تجمّد بينهم الجليد) ونحو ذلك مما هو مرتبط بالحياة الاجتماعية أو له صلة بثقافة المجتمع الدينية أو السياسية أو الاجتماعية بوجه عام (٦٣) .

خاتمة :

جاء الإسلام بأخلاق واقعية راعى الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس فاعترف بالضعف البشري وبالدوافع البشرية وبالحاجات البشرية ، فلم يوجب الإسلام على من يريد اعتناقه أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته كما يحكي الإنجيل : "إن الغني لا يدخل ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في

سمّ الخياط" (٦٤) ، بل جاء القرآن بأخلاق واقعية في مقدور الإنسان القيام بها والتمسك بها كالعدل والعفو والصبر والمغفرة للمسيء على أن يكون ذلك مكرمة يرغب فيها لا فريضة يلزم بها ، يقول الله عزوجلّ : (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ❖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ❖ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّه ❖ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ) (٦٥) ، ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها أقرب للتفاوت الفطري والعلمي بين الناس فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان والالتزام بما أمر الله من أوامر وانتهاء عما نهى عنه من نواه ، ومما يكمل هذا المعنى أن الإسلامية لم تفترض من أهل التقوى أن يكونوا برءاء من كل عيب معصومين من كل ذنب كأنهم ملائكة أولو أجنحة بل قدّرت أن الإنسان مكوّن من طين وروح فإذا كانت الروح تعلو به تارة فإن الطين تهبط به طوراً فالمتقون هم الذين يتوبون ويرجعون إلي الله (٦٦) كما وصفهم في قوله تعالى : (وَالَّذِيْنَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم ❖ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوْا لِذُنُوبِهِمْ ❖ وَمَنْ يَّغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّه ❖ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ❖ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ) (٦٧) ، فالأخلاق الإسلامية باستطاعة الفرد أن يقوم بها دون عناء ولا مشقة لأن الدين الإسلامي دين يسر لا دين عسر لقوله صلى الله عليه وسلم : "يسروا ولا تعسّروا" (٦٨) مصدقا لقوله تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ ❖ فَإِذَا الَّذِيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ) (٦٩) وبما يحقق أهمية الأخلاق في تحقيق الفكر الدعوي المنشود .

---

(١) لسان العرب : ج/١١ ، ص/٨٦ مادة (خلق) وينظر القاموس المحيط : ج/٣ ، ص/٢٣٦ مادة (خلق) . (٢) إحياء علوم الدين : ج/٣ ، ص/٥٣ . (٣) الفكر الأخلاقي العربي : ص/١١ .
(❖) جمع سفسطائي ومعناه في اللغة اليونانية : الحكيم . (٤) كتاب الأخلاق : ص/١٣١ .
(٥) تاريخ الفلسفة اليونانية : ص/٣٦٧ . (❖❖) نسبة إلى مدينة من مدن برقة في شمال إفريقيا (ليبيا) . (٦) تاريخ الفلسفة اليونانية : ص/٣٦٧ . (٧) المرجع نفسه : ص/٢٧٧. (٨- ٩) تاريخ الفلسفة الفرنسية : ص/٥ . (١٠) موسوعة أخلاق القرآن الكريم ج/١، ص/أ . (١١) فيض القدير : ج/٢ ، ص/٥٧٢ . (١٢) رواه مسلم في صحيحه : ج/١٥ ، ص/٥٢ . (١٣) سنن الترمذي : ج/٤ ، ص/١٢٢ . (١٤) سورة البقرة ، الآية/١٧٧ . (١٥) الاتجاه الأخلاقي في القرآن الكريم : ص/٨٢ . (١٦- ١٧) رواه البخاري في صحيحه : ج/١ ، ص/٢٠ . (١٨) أضواء على الأخلاق الإسلامية والمعاصرة : ص/٢ . (١٩) سورة الأعراف،من الآية/١٨١ .
(٢٠) سورة الأنفال، من الآية/٦ . (٢١) سورة المعارج ، من الآية/٣٢ . (٢٢) سورة الإسراء، الآية/٩. (٢٣) سورة ق ، الآية/٣٧ . (٢٤) سورة الأعراف ، الآية/١٧٩ .
(٢٥) سورة يوسف ، الآية/٥٣ . (٢٦) سورة النازعات ، الآيتان/٤٠- ٤١ .
(٢٧) نظام الأخلاق في الإسلام : ص/٨- ٩ . (٢٨) فيض القدير : ج/٢ ، ص/٥٧٢ .
(٢٩) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : ص/٢٧٢ . (٣٠) المرجع نفسه : ص/٢٧٣ .

(٣١) الجامع لأحكام القرآن الكريم : ج/١٨ ، ص/٢٨٨ . (٣٢) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : ص/٢٧٣ . (٣٣) فيض القدير : ج/٢ ، ص/١٢٠. (٣٤) المرجع نفسه : ج/١٤٥ . (٣٥- ٣٦) سورة القلم ، الآية/٤ . (٣٧) فيض القدير : ج/٢ ، ص/٥٧٢ .
(٣٨) سورة الحشر ، من الآية/٧ . (٣٩) روح الدين الإسلامي : ص/١٩٨ .
(٤٠) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام : ص/٣٠٩ . (٤١) سورة الرعد ، الآية/٢٢ .
(٤٢) سورة الروم ، الآية/٣٨ . (٤٣) سورة الإنسان ، الآيتان/٨- ٩ .
(٤٤) روح الدين الإسلامي : ص/١٩٨- ١٩٩ . (٤٥) سورة المائدة ، الآية/٢ .
(٤٦) سورة الإسراء ، الآية/٨٠ . (٤٧) سورة المائدة ، الآية/٣٨ .
(٤٨) سورة المطففين،الآيات/١- ٣ .(٤٩) الجامع لأحكام القرآن الكريم:ج/١٨ ، ص/٢٢٨
(٥٠) بيان إعجاز القرآن الكريم : ص/٣٣- ٣٤ . (٥١) الموافقات : ص/٣٩١- ٣٩٢ .
(٥٢) سورة المائدة ، الآية/١١٦. (٥٣) سورة السبا ، الآية/١٧ .

(*) وهو ما سماه ابن فارس (ت٣٩٥هـ) استخباراً من باب الترادف وهو عنده : "طلبت خَبَر ما ليس عند المُستخبر ، وهو الاستفهام ، وذكر ناس أنّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرْق ، قالوا : وذلك أنّ أولى الحالين الاستخبار ؛ لأنك تستخبر فتُجاب بشئ ، فرُبّما فهمته ورُبما لم تَفهمه ، فإذا سألت ثانية وأنت مُستفهم ، تقول: أفهمني ما قلته لي ، قالوا : والدليل على ذلك أنّ الباري جل ثناؤه يُوصف بالخبر ولا يُوصف بالفهم" الصاحبي في فقه اللغة ، ص/١٨٦ .

(٥٣) الجنى الدّاني في حروف المعاني : ص/٣٢ ، ورصف المباني في شروح المعاني : ص/٤٧- ٤٨ ، وتأويل مشكل القرآن الكريم : ص/٢٩٥، ٢٧٩ ، والكشف عن وجوه القراءات السبع : ج/١ ، ص/٤٢٣- ٤٢٤ . (٥٤) الجنى الداني في حروف المعاني : ص/٣٤٢ ، والكشف عن وجوه القراءات السبع : ج/٢، ص/٢٠٦- ٢٠٧ ، وينظر : تفسير غريب القرآن الكريم : ص/٣٥٦ .. (٥٥) وصف اللغة العربية : ص/١٣٨- ١٣٩ . (٥٦) الهَبازان : مشى مفرد همباز ، والهمباز فارسي معناه شريك ، والمراد يقف بين العروسَين ليلة الدخلة ، ينظر : فائت الفصيح : ص/٧١ ، هامش/١ . (=) الآس : السمُسَق (عشب عطري من الفصيلة الشفوية) وهو طيب الريح ، ينظر : المخصص: ج/١١ ، ص/١٩٥ ، والمعجم الوسيط : ج/١ ، ص/٤٤٧ مادة (السمسق) . (==) راهن: ثابت ،لا يبرح المكان ، ينظر: القاموس المحيط : ج/٤، ص/٢٣٢ مادة (الرهن) . (+) وباتت بليلة شيباء وبليلة الشيباء : إذا غلبت على نفسها ليلة هدّائها ، القاموس المحيط : ج/١ ، ص/٩٣ مادة (الشوب) . (++) مضاف:أي على الإضافة أو بالإضافة،ينظر:القاموس المحيط:ج/١،ص/٩٣مادة (الشوب) (٥٧) مجمع الأمثال : ج/١ ، ص/١٠١ ، ويضرب المثالان مجتمعان للغالب والمغلوب . (٥٨) فائت الفصيح : ص/٧٠- ٧١ . (٥٩) المخصص : ج/٣ ، ص/٢٩ . (٦٠) المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين : ص/١١٩- ١٢٠ . (٦١) المخصص : ج/٣ ، ص/٢٩ . (٦٢) المرجع نفسه : ج/٣ ، ص/٣٢٩ . (٦٣) المرجع نفسه : ص/١٣٨ . (٦٤) الخصائص العامة للإسلام : ص/١٤٩.(٦٥) سورة الشورى ، الآية/٤٠ . (٦٦) الخصائص العامة للإسلام : ص/١٥٠ . (٦٧) سورة آل عمران ، الآية/١٣٥ . (٦٨) فيض القدير : ج/٦ ، ص/٤٦١ . (٦٩) سورة فصلت ، الآية/٣٤ .

ثقافة الحضارة بين الشرق والغرب !!

بقلم : الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح العسكر
عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

لئن تفوق الغرب في التجارة والاقتصاد والصناعة وحقّق نجاحاً مشهوداً فقد انحدر خلقياً وتردّى اجتماعياً فأصبح مجتمعاً يأكل قويه ضعيفه ، وتهدر فيه القيم والأخلاق والمثل ولا ترى فيه للدين مكاناً أو دوراً إلا بين جدران المعابد في طقوس مملّة وحركات جوفاء ، ما أنزل الله بها من سلطان .

والناظر في حياة الفرد والمجتمع هناك لا يرى أثراً للحياء والفضيلة والعفاف والنزاهة ، وتلك مفردات لا يعرفها صغير ولا كبير في تلك المجتمعات إلا الأقليات المسلمة فقط !! وليس هناك حاجة لإيراد الأدلة على ما ذكرناه هنا؛ فالإعلام لم يترك من ذلك شاردة ولا واردة والمصلحون هناك علت أصواتهم مستغيثة تنادي بالتغيير؛ وتمتدح ما عليه المسلمون من مستوى أخلاقي ممتاز .

ومن ذهب إلى أي بلد شرقي أو غربي غير مسلم سيرى بعينيه ما يَنْدَى له الجبين ويثير الألم والعجب وسيرى أن لا حاكم لمعاملات القوم ولا هدف لهم ولا تقديس إلا لشئ واحد فقط ، إنه : الشهوات !!

من أجلها يبيعون ويشترون ، ومن أجلها يحبُّون ويبغضون ، ومن أجلها يوالون ويعادون ومن أجلها فقط يحاربون ويقتلون ويسالمون !!

وتلك حال وصفها عقلاؤهم بأدق وأصدق وأصرح مما نكتبه نحن ، وكان من أقوالهم (إن الحضارة الغربية تنهار من حيث تعتقد أنها تتقدم ، وتنتكس اجتماعياً وسلوكياً مما سيهدم اقتصادها وقوتها السياسية ، وأمارات ذلك وشواهده ظاهرة للعيان) !!

ومن صفحة واحدة وفي جريدة يومية واحدة قرأت هذه الأخبار التي هي شواهد لما ذكرته أعلاه :

١- السجن ٩/سنوات لأمريكية مارست الفاحشة مع ابنها : وفي التفاصيل أن الأم قد تخلت عن ابنها وعمره بضعة أيام وتبنّته عائلة أخرى وكانت تتصل به باستمرار حتى بلغ عمره أربع عشرة سنة ثم لقيته ومارست معه الفاحشة ورُفعت ضدها قضية لأنها سببت آثارا نفسية سيئة على الشباب (الطفل) مما أثار أهله بالتبنّي !!!!

٢- ليندسي لوهان تخاف من الوحدة في السجن : وفي التفاصيل : أن هذه المرأة النجمة الأمريكية تعيش حالة من الذعر الشديد بعدما حكم عليها بالسجن ٩٠/يوماً لأنها انتهكت شروط إطلاق سراحها إثر توقيفها بتهمة القيادة تحت تأثير المخدرات .. وقد طلبت أن لا تسجن في سجن انفرادي وتقدمت بطلب أن يرافقها في السجن أحد (أصدقائها) !!!

٣- رسام يقتل مائتي ألف نملة من أجل إعداد لوحة ؛ وفي التفاصيل أنّ ذلك الرسّام البريطاني اشترى مائتي ألف نملة في مجموعات تضم الواحدة فيها أربعين ألفاً مقابل ٣٣٠/جنيها استرلينياً .. وكان يقتل النمل ثم يستعمل ملقطاً لبضعة قرب بعضه في اللوحة ... وبيعت اللوحة في مزاد علني بمبلغ خمسة وثلاثين ألف دولار أمريكي !!!

٤- استرالي ينجو بحياته بعد امتطائة ظهر تمساح ؛ وفي التفاصيل : أنّ الرجل وعمره ٣٦/سنة قرر أن يمتطي ظهر تمساح طوله خمسة امثار وذلك بعد أن قضى ليلة في إحدى الحانات أفرط فيها تناول الخمر فذهب إلى حديقة التماسيح وتسلّق سياجا يحوطها واستقر على ظهر التمساح ... ثم نجا بعد أن عضه التمساح في ساقه وكاد يقضي عليه !!!

إن قارئ الأخبار الأربعة ، وكل واحد منها يتكرّر مآت المرات يومياً ، يخرج بأسئلة من أهمها :

١- أين ما يسمّونه (حقوق الإنسان) ؛ وماذا يعني نظام التبنّي للأطفال ؟ وماذا يعني نظام الصداقات بين الرجال والنساء وما معطياته وكم عدد الأبناء غير الشرعيين الذين تنتجهم الصداقات بين الرجال والنساء ؟!!

٢- تقدمت الدول الغربية في صناعة المخدرات وإنتاجها وتصديرها ، فهل سلموا من مخاطرها وما جنت عليهم وعلى العالم .. فالمرأة تقود السيارة وهي تحت تأثير المخدرات ويتكرر منها ذلك .. ولا رادع من دين أو خلق أو نظام ، وتحرر المرأة هو السبب ؟!!!

٣- الرفق بالحيوان ومستشفيات الكلاب والقطط معالم بارزة في تلك الدول .. ثم نجد من يقتل مائتي ألف نملة لكي يصنع (لوحة فنيّة) أي تناقض ذلك ؟!!

٤- أما فارس التمساح فهو نموذج للمغامرة والبطولة والحرية التي تنتجها الخمور والحانات .. فهل بقي من البطولة شئ ؟ وماذا سنسمع من ثمار الخمور الأصلية غير (المقلّدة) ؟!!

لا أظن أنّ ما أشير إليه هنا هو أسوأ ما عند أولئك الأقوام ،ولا أظن أنه

لا يحصل ما يشبهه في بلاد المسلمين .. ولكني أجزم أن الحياة الغربية حياة بلا نظام أخلاقي !!

فالمرأة (الأم) عوقبت على جنايتها على (ابنها) بالآثار النفسية التي تركها ممارستها للجنس معه وهو (صغير السن) ، ولم تعاقب على الزنا .. ولو مارسته مع (بالغ) لهان الأمر و (عفي) عنها ، تلك هي الحضارة !!

ومن حق الرسام والفنان أن (يبيد) ممالك من المخلوقات لكي يصنع عملاً فنياً لأنه لا دين له يمنعه من ذلك ، فالمهم أن يصنع لوحة نادرة ويبيعها بمبلغ كبير جداً !! والصداقة والحب عندهم لها طعم آخر ومعان أخرى .. والشك لا مكان له ، والصديق للمرأة أحب إليها من أبيها وأخيها وزوجها وابنها وتلك ركيزة هامة للحياة الاجتماعية الغربية وثمرة من ثمار الحرية في حضارة غزت الفضاء وحفرت الآبار في أعماق البحار و وصلت إلى أجهزة تعمل بتقنيّة (الناتو) .

أما نتائجها فإنّ المرأة إن وصل عمرها إلى السبعين أو ما فوقها فإنّها لن تجد بجوارها أحداً ؛ فقد نسيها زوجها أو مات ونسيها أولادها وهجرها أصدقاؤها كلهم ولم يبق فيها ما يطمع أصحاب الشهوات .. ولأن مجتمعاتهم تتحلى بخلق (الأمانة) ، وقد تقدموا في محاربة السرقة فإن ثروة تلك العجوز تصرف بكاملها إلى كلبها المدلل أو قطتها اللذين رافقاها في آخر حياتها وعاشا معها في منزلها حتى فارقت الحياة (وبئس المصير) !!

ألا ما أجلّ دين الإسلام الذي يحمي عقل الإنسان ودمه وماله وعرضه ، ما أجمل ديننا إذ يبني الحياة على قيم وأخلاق عليا يأمن فيها الإنسان على نفسه وماله ودينه وخلقه بل وتضمن للمخلوقات جميعها حماية من ظلم الظالمين وعدوان المعتدين .

ما أروع أخلاق الإسلام وهي تبني الحياة الاجتماعية على أسس قويّة راسخة تُعنى بالمادة والروح وتهتم بالأمور الماديّة والمعنوية وبالفرد والمجتمع ، ولا تجعل الشهوات هي الحكم فيما يأتي الإنسان ويدز .. وتقول لنا تعاليم الإسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه) .. أما المرأة فإنّها في الإسلام مخلوق له كرامة توصله إلى جنة الله ورضوانه ؛ حينما تحمي عرضها وعقلها ، وتنظر إليها على أنها شريك الرجل في بناء الأسرة القوية المستقلة الآمنة .. وهي في الغرب دُمية يتسلّى بها الرجال ويصلون إلى ما يريدون من شهوات ومناصب ومكاسب قريبة وبعيدة ، هذه معالم بارزة من ثقافة الحضارة عند المسلمين وعند غيرهم !

المال ومكانته في الإسلام

بقلم : الدكتور خورشيد أشرف إقبال الندوي
(رئيس المعهد الإسلامي العالمي ، لكنار – الهند)

إن الإسلام منهج متكامل لحياة البشر ، وليس مجرد مجموعة من الأقوال والأفعال والنصوص الدينية ، وإنما يتسع ليشمل جميع ما يتعلق بالحياة الإنسانية في العبادات والمعاملات ، ويتناول كافة مجالات الحياة ويصلح لكل زمان ومكان .

وبما لا شك فيه أن المال عصب الحياة ، وزينة الحياة الدنيا ، وبه عمارة الكون ، وقوام المجتمع ، ولذا اهتم الإسلام به اهتماما كبيرا فاق غيره من الديانات السابقة ، فقد رسم الخطوط المشروعة لاكتسابه ، و وضع نظاما دقيقا لحمايته وحفظه ، وبيّن القنوات الصحيحة لإنفاقه ، لينال المنفق أجرا وثوابا بعطفه على الفقير ، وينال الفقير أجرا وثوابا بصبره وجلده ، وبهذا التكافل الاجتماعي تترابط البشرية ، فيسعد أصحاب المال ، ويسعد من حولهم من المحتاجين .

المال لغة واصطلاحا :

- المال لغة : ما ملكته من جميع الأشياء ، والجمع أموال ، يذكر ويؤنث ، فيقال: هذا المال وهذه المال ، وقال الفيروزآبادي : "المال ما ملكته من كل شئ" (١).

وقال ابن الأثير : "المال في الأصل ما يملك من الذهب ، ثم أطلق على كل ما يقتني ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم (٢) .

وبناءً على هذا فإن المال في اللغة يطلق على كل ما يملكه الإنسان إما ما لا يملكه الإنسان فلا يسمى مالا في اللغة .

وللمال في الاصطلاح تعريفات عديدة ، نذكر منها ما يلي :

عرفه الحنفية بعدة تعريفات أهمها : "ما يميل إليه الطبع ويمكن ادخاره لوقت الحاجة" (٣) فتخرج المنفعة لأنه لا يمكن ادخارها ، ولأن المال ما يكون موجودا والمنفعة ليست موجودة ، وهذا التعريف غير جامع لأفراد المعرّف ، وذلك لأنه لا يشمل بعض ما لا يدخر مع كونه مالا عندهم مثل الفاكهة والخضروات ،

وكذلك تخرج بعض الأموال التي لا تميل إليها النفس ، ولو لا الحاجة الملحة ما نظر الإنسان إليها مثل الأدوية (٤) .

وعرفه المالكية بأنه : "ما يقع عليه الملك ، ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه" (٥) ، والتعريف بقوله : "ما يقع عليه الملك ويستبد به المالك تدخل تحته الأعيان والمنافع لأنه يقع عليهما الملك ، وللمالك الحق في أن يستبد بها ويتصرف فيها دون سواه ، سواء أكانت عيناً أم منفعة ، وقولهم : "أخذه من وجهه" أي من طريق حلال .

وعرفه الشافعية بأنه : "ما له قيمة يباع بها ، وتلزم متلفه ، وإن قلت ، ومالاً يطرحه الناس ، مثل الفلس وما أشبه ذلك" (٦) ، فعبارة : "ما له قيمة يباع بها" عامة تشمل الأعيان والمنافع ، لأن المنافع لها قيمة في المذهب الشافعي ، وسيأتي توضيح ذلك بمشيئة الله تعالى .

وعرفه الحنابلة بأنه : "ما فيه منفعة مباحة لغير حاجة أو ضرورة"(٧) ، فيخرج عن هذا التعريف ما لا نفع فيه أصلاً كالحشرات، وما فيه منفعة محرمة كالخمر ، وما فيه منفعة مباحة للحاجة كالكلب ، وما فيه منفعة مباحة للضرورة كالميتة في حال المخمصة (٨) .

وبالمقارنة بين تعريفات كل من : المالكية والشافعية نرى أنه يشمل الأعيان والمنافع ، أما تعريف الحنفية والحنابلة فإنه لا يشمل المنافع مع أن الحنابلة يعدونها مالاً دون الحنفية ، ولذلك قال بعض الحنابلة تعليقاً على هذا التعريف : "ظاهر كلامه هنا كغيره أن النفع لا يصح بيعه مع أنه ذكر في حد البيع (٩) صحته ، فكان ينبغي أن يقال هنا كون المبيع مالاً أو نفعاً مباحاً مطلقاً أو يعرف المال بما يعم الأعيان والمنافع" (١٠) .

وأما عدم شمول تعريف الحنفية للمنافع فذلك لأنهم لا يرونها مالاً كما سيأتي بمشيئة الله تعالى .

وبالنظر في التعريفات السابقة يمكن أن يعرف المال "بأنه ما له قيمة بين الناس ويباح الانتفاع به شرعاً في حال السعة والاختيار" .

فالقيد : "ماله قيمة بين الناس" يشمل الأعيان كالذهب والفضة والمنافع كالسكني ، بل إنه يتسع فيشمل أشياء لم تكن معروفة فيما سبق ما دامت صفة المالية قد تحققت فيها ، وذلك مثل الحقوق الذهنية أو حقوق الابتكار وكذلك الجراثيم التي يتم تحويلها في معامل الأدوية إلى أمصال لمقاومة الأمراض ونحوها (١١) وكذلك يشمل الأوراق المالية مثل الأسهم والسندات .

كما أن التعريف يشمل ما له قيمة عند بعض الناس كالملابس المستعملة بالنسبة للفقراء والمحتاجين ، ولا تدخل معنا الأشياء ذات القيمة العظيمة ،

ولكن ليس لها قيمة مالية بين الناس كضوء القمر والشمس والهواء الطلق، أما إذا ضغط هذا الهواء في أنانيب الأكسجين التي يستعان بها في كثير من الأغراض كالعلاج صارت له قيمة مادية .

أما القيد : "يباح الانتفاع به شرعاً" فقد أخرج الأشياء التي أهدر الشارع ماليتها – وان كان لها قيمة عند بعض الناس – كالخمر بالنسبة إلى المسلم ونحوها .

وكذلك القيد "في حال السعة والاختيار" يخرج به ما حرمه الشارع حال السعة والاختيار مثل لحم الميتة والطعام المسموم أو الفاسد ، وما أباحه عند الاضطرار كإزالة الغصة بالخمر عند عدم وجود غيرها .

مالية المنافع :

هناك اختلاف بين الفقهاء في مالية المنافع ، وهذا الاختلاف هو ما دفعني للحديث عن ذلك في السطور الآتية ، وقبل العرض لهذا أذكر تعريف المنافع .

المنافع في اللغة جمع منفعة من النفع ، وهو ما يستعان به في الوصول إلى الخير ، يقال : انتفعت بالشئ ، والمنفعة اسم منه (١٢) .

فالمنفعة عند أهل اللغة تضم كل ما يمكن استفادته من الشيئ سواء كان عرضاً مثل سكني الدار ، وركوب الدابة ، أو مادة مثل ثمر الشجر ، وأجرة الدابة .

وأما المنفعة في الاصطلاح فهي : "ما لا يمكن الإشارة إليه حساً دون إضافة يمكن استيفاؤه غير جزء مما أضيف إليه" (١٣) .

وعلى هذا تكون المنفعة شيئاً معنوياً لا يمكن الإشارة إليه حساً ، دون إضافة مثل ركوب السيارات وسكني الدار ، وهذا الشئ ليس جزءاً مما أضيف إليه ، فالانتفاع بسكني الدار ليس جزءا من الدار ، وإن كانا متلازمين ، بمعنى أنه لا يمكن الانتفاع بالسكنى إلا إذا وجدت الدار .

آراء الفقهاء في مالية المنافع :

اختلف الفقهاء في عد المنافع مالاً ، ويمكن أن نعرض أقوالهم في اتجاهين رئيسين :

الاتجاه الأول : أن المنفعة لا تعد مالاً ، والقائلون به الحنفية وبعض الإباضية (١٤) فهم يسيرون على الضابط الذي وضعوه للمال وهو أنه لابد أن يكون عيناً يمكن إدخاره وحيازته .

الاتجاه الثاني : أن كل منفعة ذات قيمة مالية تعد مالاً ولو لم تكن عيناً ، وبهذا قال جمهور الفقهاء (١٥) وأيده من العلماء المحدثين : الشيخ علي الخفيف

(١٦) والدكتور مصطفى أحمد الزرقا (١٧) ، والدكتور محمد مصطفى شلبي (١٨) ، والدكتور أحمد الحصري (١٩) ، والدكتور وهبة الزحيلي (٢٠) ، والدكتور عبد الله المصلح (٢١) ، والدكتور أحمد يوسف (٢٢) .

الأدلة :

استدل أصحاب الاتجاه الأول بما يلي :

أن صفة المالية للشئ إنما تثبت بالتمول ، والتمول صيانة الشئ وادخاره لوقت الحاجة ، والمنافع لا يمكن إدخارها وحيازتها (٢٣) وما لا يمكن ادخاره وحيازته لا يعد مالا .

يناقش هذا الاستدلال من وجوه :

أن المنفعة متمولة ، ودليل تمولها هو جعل الناس لها في تجاراتهم ومعاملاتهم غرضاً ماليا .

أن المنفعة يمكن حيازتها بحيازة أصلها ومصدرها .

أن المنافع مقصودة من الأعيان (٢٤)،ولولاها ما طلبت ولا رغب الناس فيها .

ولأن المنفعة ليس لها مثل تجبر به عند فواتها لارتباطها بأزمان حدوثها وطرق استيفائها (٢٥) ، وهي أمور مختلفة فتختلف باختلافها .

يناقش هذا الاستدلال بأنه إذا لم يمكن للمنافع مثل في الحال فإن لها قيمة والقيمة تعد مثلا حكما .

واستدل أصحاب الاتجاه الثاني بما يأتي :

أن المنافع بمنزلة الأعيان ؛ لأنه يصح تمليكها في حال الحياة وبعد الموت وتضمن باليد والاتلاف ويكون عوضها عينا ودينا (٢٦) .

أن اعتبار المنافع من الأموال هو المتفق مع عرف الناس ، والمتسق مع أغراضهم ومعاملاتهم ، فهم لا يبتغون الأعيان إلا طلبا لمنافعها ، ولأجلها يستعيضونها بالنفيس من أموالهم ، ومالا منفعة فيه لا رغبة فيه ولا طلب له (٢٧) .

أن المنافع تقابل بالمال ، إذ إن التعدى على مصادرها أو الحيلولة بينها وبين صاحبها ومتعة الانتفاع بها مثلا يترتب عليه وقوع خسارة مالية لصاحبها في الإجارة ، وتختلف قيمتها باختلاف الأزمان والأعيان والبيئات (٢٨) .

اعترض الحنفية على عد المنافع في عقد الإجارة مالاً لمقابلتها به ، لأن تقومها في عقد الإجارة كان أثراً ونتيجة للعقد الوارد على مصادرها واعتباره حالاً محلها فيه ، وكان وجوده وقيامه وجوداً له فقومت تبعاً لتقوم أصلها ، للضرورة التي اقتضت ذلك من حاجة الناس إلى انتفاع بعضهم بما لبعضهم الآخر من أعيان ليس لهم مثلها وقيام التعامل وتوقف المصالح على ذلك ، فكان تقومها في هذا التعاقد وأمثاله أمراً اقتضته الضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها

ولم يكن ذلك لماليتها (٢٩) .

الترجيح :

بالنظر فيما سبق من آراء الفقهاء وأدلتها ومناقشتها يظهر لنا أن الرأي الأرجح هو ما ذهب إليه الجمهور من عد المنافع مالا متقوما ؛ وذلك لقوة أدلتهم، ولاتفاقه مع العرف وملاءمته لأغراض الناس ومعاملاتهم ، ويعضد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدها مالا حين أجاز لغير القادر أن يمهر زوجته من القرآن ؛ أي : تعليمها إياه ، والتعليم منفعة ، والمهر لا يكون إلا مالا ، فظهرت مالية المنافع ، كما أن متأخرى الحنفية أفتوا بضمان منافع المغصوب استحسانا في ثلاث حالات هي :

منافع الموقوف للسكني أو للاستغلال ، ومنافع ملك اليتيم ، ومنافع المعد للاستغلال (٣٠) من الأعيان ، وقد بينوا السبب الذي من أجله استحسنوا الضمان في هذه المسائل ، فقالوا : إن في ذلك مراعاة لمصلحة الوقف ومصلحة اليتيم حتى لا يكون من وراء عدم تضمين المنتفع عند ذلك ممالأة على الإضرار بالوقف أو اليتيم نظرا لعدم قدرتهما على حماية حقوقهما .

أما في المعد للاستغلال فالمراعي فيه أن إقدام المنتفع على الانتفاع به مع علمه ذلك ، ومع إعداده للاستغلال يعد في حكم قبوله لاستئجاره ، كما يعد إعداده للاستغلال في حكم إيجاب صادر من مالكه بذلك (٣١) .

مكانة المال في الإسلام :

لقد جعل الإسلام للمال مكانة كبيرة ، وأعطاه القيمة الواقعية التي يستحقها ، فهو في نظره عصب الحياة ، وقوام نظام الأفراد والجماعات .

بل إن المال من ضروريات الحياة ، فهو أحد أمور خمسة لا غنى للجنس البشري عنها في بقائه واستمراره في هذا ا لوجود ، وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، ومعنى ضروريتها أنه لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا ، لأن فقدها ينجم عنه عدم جريان مصالح الدارين على انتظام واستقامة بل على فساد وفتن وتهارج وتغالب مما يؤدي إلى خسارة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين (٣٢) .

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية بالمحافظة عليها سواء أكان ذلك في أصل وجودها أم في بقائها ونموها واستمرارها ، وقد كانت مراعاة ومحافظا عليها في كل ملة (٣٣) ، لأنه لابد منها في كل زمان لحفظ نظام العالم واستدامة صلاحه .

وشريعة الإسلام التي جاءت للمحافظة على نظام الأمة ورفعة مكانتها، وتقوية شوكتها ومنعتها لابد أن يكون لمال الأمة وثروتها في نظرها مكانة

سامية ومنزلة رفيعة في الاعتبار والاهتمام .

بل إننا لو تتبعنا نصوص الشريعة في القرآن والسنة الدالة على الاهتمام بمال الأمة وثروتها المنوهة بأن المال قوام حياة الناس وقطب الرحى لمعايشتهم ومرافقهم العامة والخاصة لوجدنا أدلة كثيرة تفيدنا نوعا من اليقين بأن للمال في نظر الشريعة منزلة لا يستهان بها (٣٤) .

ولا عجب أن تكون للمال في الإسلام مكانة مرموقة لأنه دين حياة وعمل ، والمال عصب الحياة وعمودها الفقري ، وجميع ما تتوقف عليه الحياة سواء أكان ذلك في أصلها وقيامها أم في سبيل كمالها وتقدمها وسعادتها وعزها من قوة وعلم وصحة واتساع في الصناعة والعمران والسلطان لا يتحقق إلا بالمال (٣٥) ، ولما كان المال قوام الحياة الفردية والاجتماعية وملاكها وقيام نظامها كما قال عزوجلّ : (وَ لا تُؤتُو السُّفَهَاءَ أمْوَالكمُ التِيْ جَعَلَ اللّه لكمْ قِيَاماً) (٣٦) وقوام الشئ ما به يحفظ ويستقيم (٣٧) فلا غرو أن يرد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من ثمانين آية (٣٨) ، وفي السنة في أحاديث أكثر من أن تحصى وتعد ، بل جعله الله من زينة الحياة الدنيا : فقال تعالى : (المَالُ وَالبَنُوْنَ زِيْنَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا) (٣٩) وذلك لإعانتهما فيها ، و وجود الشرف بهما ، ومن اللطائف في الآية الكريمة تقديم المال على البنين (٤٠) ، لعراقته فيما نبط به من الزينة والإمداد ، ولكون الحاجة إليه أمس ، ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس (٤١) .

من أجل ذلك فإن الشريعة الإسلامية طلبت السعي لاكتساب المال وأذنت في الاسترزاق بكل وسيلة مشروعة لديها لا تلحق بالغير ضررا ؛ قال تعالى: (هُوَ الَّذِيْ جَعَلَ لَكمُ الأرْضَ ذَلُوْلاً ❖ فَامْشُوْا فِيْ مَنَاكِبِهَا ❖ وَكلُوْا مِنْ رِزْقِهِ ❖ وَإلَيْهِ النُّشُوْرُ) (٤٢) وقال تعالى : (فَإذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ ❖ فَانْتَشِرُوْا فِيْ الأرْضِ ❖ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّه) (٢٣) ، وقال جلّ شأنه : (وَآخَرُوْنَ يَضْرِبُوْنَ فِيْ الأرْضِ يَبْتَغُوْنَ مِنْ فَضْلِ اللّه) (٤٤) إلى غير ذلك من الآيات .

وما دخل في نفوس كثير من الناس أن المال ليس منظورا إليه في نظر الشريعة الإسلامية إلا إغضاءً ، وأنه غير لاق من معاملتها إلا رفضا ، لعل ذلك لدعوة القرآن المتكررة وحثه على الإنفاق ، وتشديده على المترفين وبيان عاقبتهم من فتنة المال وهي الطغيان والتكبر .

والحقيقة أن المال ليس مبغضا لعينه فإنه نعمة من نعم الله ، وإنه إحدى نعمتين يقع فيهما الحسد بين الناس ، فقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : "لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار" (٤٥) وكيف

يكون المال مبغضاً لذاته والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان حيث قال : (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ❖ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ) (٤٦) وهو تعالى : ينهى عن الإسراف والتبذير في إنفاقه، قال تعالى : (وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ❖ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ❖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) (٤٧) .

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في فضل الغني منها حديث سعد رضي الله عنه : "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" (٤٨) وقوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي" (٤٩) .

وما يتردد على لسان بعض الناس من أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تعوذ من الغني بقوله : "أعوذبك من شر فتنة الغني" (٥٠) فهو الغني المذموم الذي لا يعرف صاحبه قدره فيؤدي به إلى البغي والبطر ، بدلاً من الحمد والشكر ، أو إلى اللهو والفساد بدلاً من الاستقامة والعمل النافع .

وحينئذ يصير الغني بحق نقمة ومصيبة يبتلي بها المرء وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ❖ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ❖ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (٥١) .

وصفوة القول : أن الإسلام ليس عدواً للمال ، ولا يحض على تركه أو التمتع به وبزينته بإفراط ، بل إن المبدأ الأساسي للإسلام هو أن يفهم الناس أن المال ليس هدفاً وإنما هو وسيلة لتحقيق هدف ، هو : إحياء المجتمع البشري في ظل التعاون والحب والتعاطف ، وإن مهمة من جعله الله وكيلاً في هذا المال هو إنفاقه في الوجوه التي يتحقق بها هذا الهدف ، فلا يصبح المال عنده غاية في ذاته ولا شهوة ، حتى لا يكون أداة للطغيان والعصيان ، وكذلك أراد الإسلام أن يفهم الأغنياء أنهم بأدائهم حقوق الغير في أموالهم لم يضحوا بأموالهم تضحية فهم مستخلفون في مال الله ، لأن المال مال الله لا مال الأغنياء .

---

(١) راجع : المصباح المنير للفيومي ، مادة "مول" ، ط/١ سنة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لسان العرب لابن منظور مادة "مول" : ج/١١ ، ص/٦٣٢ ، ط/دار صادر – بيروت ، القاموس المحيط للفيروزآبادي ، باب اللام فصل الميم : ج/٤ ، ص/٥٢ ، ط/دار الحديث القاهرة – بدون تاريخ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر : ج/٤ ، ص/٣٧٣ ، المكتبة الإسلامية ، تحقيق محمود الطناحي .

(٣) راجع : البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم : ج/٥ ، ص/٢٧٧ ، ط/دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ، رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين : ج/٤ ، ص/٥٣٤ ، ج/٥ ، ص/٥٣ ، ط/٣ ، سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م ، مصطفى البابي الحلبي بمصر ، منحة الخالق على البحر الرائق لابن عابدين : ج/٥ ، ص/٢٧٧ مطبوع على هامش البحر الرائق .

(٤) راجع : الملكية ونظرية العقد للشيخ أبي زهرة : ص/٤٣ ، مطبعة فتح الله إلياس نوري سنة ١٣٧٥هـ ، المدخل الفقهي العام لمصطفى أحمد الزرقا : ج/٣ ، ص/١١٤- ١١٥ ، ط/دار الفكر

بيروت .

(٥) الموافقات للشاطبي : ج/٢ ، ص/١٧ ، ط/٣ سنة ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م دار المعرفة بيروت .

(٦) الأشباه والنظائر للسيوطي : ص/٣٢٧ ، ط/دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٣هـ- ١٩٨٣م .

(٧) الإقناع للحجاوي : ج/٢ ، ص/٥٩ ، ط/دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .

(٨) كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي : ج/٣ ، ص/١٥٢ ، ط/دار الفكر بيروت سنة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م .

(٩) عرف البيع بقوله : "هو مبادلة مال ولو في الذمة أو منفعة مباحة كممر الدار بمثل أحدهما سنة ١٣٧٥هـ على التأبيد" ، الإقناع للحجاوي : ج/٢ ، ص/٥٦ .

(١٠) راجع : كشاف القناع : ج/٣ ، ص/١٥٢ .

(١١) راجع : الملكية الخاصة في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الله المصلح : ص/٤١ ، طبعة الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية ، والأموال ونظرية العقد في الفقه الإسلامي للدكتور محمد يوسف موسى : ص/٦٢ ، ط/١ سنة ١٣٧٢هـ- ١٩٥٢م ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر .

(١٢) راجع : القاموس المحيط في باب العين فصل النون : ج/٣ ، ص/٨٩ ، المصباح المنير : ج/٢ ، ص/٦١٨ ، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي : ج/٥ ، ص/١٠٤ ، ط/المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٠هـ .

(١٣) تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية لمحمد بن علي بن حسن مفتي المالكية : ج/٤ ، ص/٨ ، مطبوع على هامش الفروق للقرافي ، ط/١ مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر .

(١٤) راجع : المبسوط : ج/١١ ، ص/٧٩ ، ط/دار المعرفة بيروت سنة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م ، رد المحتار على الدر المختار : ج/٤ ، ص/٥٣٥ ، ٥/٥٣ ، مجلة الأحكام وشرحه درر الحكام المادة (٥٩٦) : ج/٢ ، ص/٥٨٤- ٥٨٥ ، ط/دار الكتب العلمية بيروت ، كتاب الإيضاح للشماخي : ج/٤ ، ص/٤٧١ ، ط/مطبعة السوطن بيروت سنة ١٣٩١هـ- ١٩٧١م .

(١٥) راجع : بداية المجتهد : ج/٢ ، ص/٢٦٣ ، الموافقات : ج/٢ ، ص/١٧ ، حاشية الدسوقي : ج/٣ ، ص/٤٤٣ ، ط/دار الفكر بيروت ، الحاوي الكبير للماوردي : ج/٨ ، ص/٦٢٨ ، ط/دار الفكر بيروت ، المجموع للنووي : ج/٩ ، ص/١٧٥ ، ط/دار الفكر بيروت ، المغني والشرح الكبير : ج/٦ ، ص/٧ ، طبعة دار الفكر ، كشاف القناع : ج/٣ ، ص/١٥٢ ، السياسة الشرعية لابن تيمية : ص/٤٥ ، الناشر مكتبة الدعوى الإسلامية شباب الأزهر ، جواهر الكلام للنجفي : ج/٢٧ ، ص/٣٠٩ ، ط/دار إحياء التراث العربي بيروت ، كتاب الإيضاح : ج/٤ ، ص/٤٧١ .

(١٦) أحكام المعاملات الشرعية : ص/٢٧ ، ط/٢ ، سنة ١٣٦٣هـ- ١٩٤٤م مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١٧) المدخل الفقهي العام : ج/٣ ، ص/٢٠٨ .

(١٨) المدخل بالتعريف في الفقه الإسلامي : ص/٢٤٠- ٢٤١ ، ط/٢ سنة ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م مطبعة دار التأليف بالقاهرة .

(١٩) السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي : ص/٤٧٤ مطبعة دار التأليف بالقاهرة .

(٢٠) الفقه الإسلامي وأدلته : ج/٤ ، ص/٤٢ ط/٣ سنة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م ط/دار الفكر دمشق – سوريا .

(٢١) الملكية الخاصة في الشريعة الإسلامية : ص/٥١ .

(٢٢) المال في الشريعة الإسلامية : ص/٢٠- ٢١ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ، سنة ١٩٩٠- ١٩٩١م .

(٢٣) راجع : المبسوط : ج/١١ ، ص/٧٩ ، رد المحتار : ج/٥ ، ص/٥٣ ، مجلة الأحكام ودرر الحكام المادة (٥٩٦) : ج/٢ ، ص/٥٨٤ .

(٢٤) بداية المجتهد : ج/٢ ، ص/٢٦٢ ، المدخل الفقهي العام : ج/٣ ، ص/٢٨٠ .

(٢٥) راجع : المبسوط نفس الصفحة ، البدائع : ج/٧ ، ص/١٤٥ ط/٢ سنة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م دار الكتب العلمية بيروت ، درر الحكام : ج/٢ ، ص/٥٨٤ .

(٢٦) راجع : المغني والشرح الكبير : ج/٦ ، ص/٧ ، حاشية الدسوقي : 3/4 .

(٢٧) راجع : أحكام المعاملات الشرعية : ص/٢٧ .

(٢٨) راجع : بداية المجتهد نفس الصفحة ، نهاية المحتاج : ج/٨ ، ص/٢٥٥ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة سنة ١٩٦٧م ، تخريج الفروع على الأصول : ص/١١١ ، الضمان في الفقه الإسلامي للشيخ علي الخفيف : ص/٦١ المطبعة الفنية الحديثة سنة ١٩٧١م .

(٢٩) راجع : المبسوط نفس الصفحة ، الهداية : ج/٩ ، ص/٣٥٧ ، ط/١ سنة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٠م ، مصطفى البابي الحلبي القاهرة ، درر ا لحكام : ج/٢ ، ص/٥٨٥ ، الضمان في الفقه الإسلامي : ص/٦١- ٦٢ .

(٣٠) المعد للاستغلال : هو الشئ الذي أعد وعين على أن يعطي بالكراء كالدار والدكان من العقارات التي بنيت أو اشتريت على أن تؤجر ، انظر : مجلة الأحكام ودرر الحكام ، المادة (٤١٦ : ج/٢ ، ص/٣٧٩ .

(٣١) راجع : مجلة الأحكام وشرح درر الحكام ، المواد (٥٩٦- ٥٩٩) : ج/٢ ، ص/٥٨٤- ٥٩٠ .

(٣٢) راجع : الموافقات للشاطبي : ج/٢ ، ص/٨ .

(٣٣) المرجع السابق : ج/٢ ، ص/١٠ .

(٣٤) راجع : مقاصد الشريعة لابن عاشور : ص/٧٨ ، المطبعة الفنية بتونس .

(٣٥) راجع : الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت : ص/٢٢١ مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر سنة ١٣٧٩هـ .

(٣٦) سورة النساء ، الآية/٥ .

(٣٧) راجع : الإسلام عقيدة وشريعة نفس الصفحة .

(٣٨) راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة "مول" : ص/٦٨٢- ٦٨٣ ، دار الحديث القاهرة سنة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

(٣٩) سورة الكهف ، من الآية/٤٦ .

(٤٠) راجع : أيضا في تقديم المال على البنين : سورة الإسراء/٦ ، سورة سبأ/٣٥ ، سورة التغابن/١٥ .

(٤١) راجع : محاسن التاويل للقاسمي : ج/١١ ، ص/٥٠ ، ط/٢ سنة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م ، دار الفكر بيروت .

(٤٢) سورة الملك ، الآية/١٥ .

(٤٣) سورة الجمعة ، من الآية/١٠ .

(٤٤) سورة المزمل ، من الآية/٢٠ .

(٤٥) رواه البخاري في صحيحه (٥١١/٢ – كتاب الزكاة ، باب إنفاق المال في حقه ، ح/١٣٤٣) ، والترمذي في سننه (٢٢١/٣ – أبواب البر والصلة باب ما جاء في الحسد ، ح/٢٠٠١) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٧/١ – باب قوله صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلى في اثنتين) ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٤٦) سورة النساء ، من الآية/٣٩ .

(٤٧) سورة الإسراء من الآية/٢٦- ٢٧ .

(٤٨) رواه البخاري في صحيحه (٢٧٧/٢ – كتاب الوصايا ، باب الوصية في الثلث ، ح/٢٧٤٢) ، ومسلم في صحيحه (١٢٥٠/٣- ١٢٥١ – كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث ، ح/١٦٢٨) وللحديث تتمة .

(٤٩) رواه مسلم في صحيحه (٢٢٧٧/٤ – كتاب الزهد والرقائق ، ح/٢٩٦٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٧/١، ١٦٨ عن عامر بن سعد) .

(٥٠) رواه البخاري في صحيحه (٢٣٤١/٥- ٢٣٤٢ – كتاب الدعوات ، باب التعوذ من المآثم والمغرم ، ح/٦٠٠٧) وفي (٢٣٤٤/٥ – باب التعوذ من فتنة الفقر ، ح/٦٠١٦) وفي (٢٣٤٤/٥ – باب الاستعاذة من فتنة الغني ، ح/٦٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (٢٠٧٨/٤ – كتاب الذكر والدعاة ، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها ، ح/٢٧٠٦) .

(٥١) المال وطرق استثماره في الإسلام للدكتور شوقي عبده الساهي : ص/٣٥- ٣٦ ، ط/٢ سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م ، مطبعة حسان بالقاهرة ، والآية من سورة الإسراء/١٦ .

الفقه الإسلامي

لباس المرأة المسلمة أمام الكفار وغيرها

الأستاذ محمد نعمة الله إدريس الندوي
(الإمارات العربية المتحدة)

الحمد لله رب العلمين، والصلاة والسلام على محمد أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.... وبعد :

مما ابتلى به المسلمون في عصر التخلف و الانحطاط و الانبهار بحضارة الغرب أن اتخذ أعداؤهم لباس المرأة وسيلة لهدم الدين و الأخلاق و إهدار الكرامة و الفضيلة و القضاء على الحياء و العفة، و طمس الهوية الإسلامية، ففزوا مجتمعاتهم و أسواقهم ببدعة الموديلات الجديدة و الموضات الحديثة في ملابس النساء، مما أوقع ضعيفات النفوس و قليلات الإيمان من بنات جلدتنا في مصيدتهم. فما لبثت هولاء النسوة إلا أن فتن بالأزياء الغربية و التصميمات المستوردة فتنة عظيمة، و لبس بسبب جهلهن بأحكام اللباس في الإسلام، و بعدهن عن الدين، وميلهن إلى تقليد الأمم الكافرة ملابس وأزياء لا تستر أو تشف أو تصف ما أوجب الله عليهن ستره و إخفاءه، مما أدى إلى انتشار مظاهر التبرج و التكشف بين المسلمات في البلدان الإسلامية و غيرها.

و خلقت هذه الفتنة عندهن تناقضات عجيبة و غريبة فترى إحداهن مثلا قد سترت رأسها و شعرها و عنقها سترا كاملا بدافع الدين، و لكنها في نفس الوقت لبست لباسا ضيقا يظهر مفاتنها و يحجم أعضاءها و يبين عجيزتها و أفخاذها، أو اختارت ملابس رجال رجالية، أو ما فيها تصاوير و نقوش محرمة، أو ألبستها بناتها المراهقات و الشابات . و هذه الأمثلة بمثابة قطرة من بحر، فهناك مظاهر منتشرة على شكل واسع للمخالفات الشرعية في اللباس عند المرأة، و لا يحتاج لذي بال الإكثار أو سوق المزيد منها.

و لم تقف الفتنة إلى هؤلاء المفتونات، بل تعدت إلى بعض الملتزمات، إذ تساهلن في إرتداء هذه الملابس الفاضحة بين المحارم و النساء أو صلين فيها، أو لبسن عباءات مطرزة مزركشة تعتبر زينة في نفسها و لا تحقق غرض التستر و الاحتشام.

و يا ليت لو كان الرجال قاموا بواجب القوامة نحو نساءهم و بناتهم، أخذوا بأيديهن إلى ما يفرض عليهن دينهن من التمسك بأهداب العفة و الوقار في اللباس، و لكنهم لقلة دينهم و ضآلة إيمانهم ضعف رجولتهم، لم يستطيعوا الوقوف في سبيلهن، بل شاركهن في هواهن أو هم الذين أفسدوا عقولهن و دينهن، و العياذ بالله. و من فضل الله و رحمته أن مجتمعاتنا لا تخلو من مسلمين ومسلمات، يقفون صامدين أمام هذا الغزو الزاحف، و يلتزمون بآداب الإسلام في اللباس والحشمة ويستمسكون بتعاليمه القويمة... فنسأل الله عز وجل أن يقوى عزيمتهم و يرزقهم مزيدا من الثبات و السداد على طريق الوسطية و الاعتدال، دون إفراط و تفريط في جميع شؤون دينهم و منها أحكام اللباس ليكونوا قدوات صالحة لغيرهم. فإن شريعتنا شريعة سهلة سمحة، و النبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى التيسير دون التعسير فقال صلى الله عليه وسلم : "فإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين "[1].

و إني أردت بهذا البحث أن أخاطب كل أخت فاضلة تريد التبصر بأحكام دينها في لباسها، و كيف تكون في ملبسها و مظهرها أمام محارمها و غيرهم و عند ما تقف أمام ربها، كما أردت أن أوجه بها كل امرأة أو فتاة مسلمة وقعت في فخ الأعداء و أعوانهم أن تستفيق من غفلتها و تعود لقيمتها ، فلن تنهض أبدا الأمة بدونها وكذلك لا تحدث الانتكاسات إلا والمرأة من أهم المقومات للانتكاسة . ولقد علم أعداء الأمة قيمة المرأة فى الإسلام فلم يهنأ لهم بال إلا وهم يدرسون كيف نهدم المرأة ونطمس هويتها حتى ينهد بنيان هذا الإسلام.

نعم، ليس للباس في الإسلام شكل معين، و لكن له ضوابط شرعية معينة. نعم، إن أمور اللباس تخضع إلى العرف و عادات الناس ما لم تخالف الشرع، و لكن العرف المعتبر هو عرف النساء الصالحات ذوات الحياء و الدين و الإيمان، و ليس عرف المتبرجات قليلات الحياء أو عديماته.

و لا يعزبن عن بال كل امرأة تؤمن بالله و رسوله أن الستر نعمة من الله على عباده و هتك الستر عقاب من الله تعالى ؛ و لذلك لما عصى آدم و زوجه حواء الله عز و جل عاقبهما بأن سلب منهما نعمة الستر فنزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما كما ثبت من آيات سورة الأعراف. فلتتق أمة الله أن تقدم على عمل يحرمه من نعمة تعتبر علامة بارزة لطهرها و عفافها و قربها من الله.

و قد قمت بتقسيم البحث إلى مباحث ، ولعل إلقاء نظرة على الفهرست يكفى للاطلاع على محتوياته على وجه الإجمال.

---

[1] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث بول الأعرابي في المسجد.

و أخيرا إن كنت موفقًا ولو إلى حدٍ ما في إنالة الموضوع حقّه، فذاك توفيق من الله و فضل منه جعله الله نافعا لي ولمن قرأه واستفاد منه ؛ وإن كان غير ذلك، فيرجع إلى قلة زادي في باب العلم، أرجو الله أن يستر عيوبي و زلاتي ، و أن يعلّمنا جميعا ما جهلنا وينفعنا بما علمنا ، إنّه نعم المولى و نعم النصير . وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

معنى اللباس لغة :

اللباس: ما يلبس و كذلك اللبس بالكسر والملبس و اللبوس مثله يقال لبس الثوب من باب تعب لبسا بضم اللام.و جمع اللباس لبس مثل كتاب و كتب و الملبس جمعه ملابس. و لبوس على وزن فعول: الثوب و الدرع و السلاح[1].

و لباس كل شيء: غشاؤه، ولباس الرجل امرأته و زوجها لباسها ، و كذلك من معانيه الاختلاط و الاجتماع [2] ،قال الله تعالى: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[3] ، يقول الشوكاني: "جعل النساء لباسا للرجال و الرجال لباسا لهنّ لامتزاج كل واحد منهم بالآخرعند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب و لابسه.قال أبوعبيدة و غيره : يقال للمرأة لباس و فراش و إزار.و قيل إنما جعل كل واحد منهما لباسا للآخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس"[4]. مثّل القرطبي للمعنى الأول للآية بقول النابغة الجعدي حيث يقول:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

و قال عن المعنى الثاني:" قال بعضهم: يقال لما ستر الشيء و واراه: لباس، فجائز أن يكون كل واحد منهما سترا لصاحبه عمّا لا يحلّ"[5] . و قال الله تعالى: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بماكانوا يصنعون[6] ، يقول صاحب القاموس:" لمّا بلغ بهم الجوع الغاية ضرب له اللباس مثلا لاشتماله"[7].

و يأتي اللباس لمعنى الإيمان أو الحياء أيضا[8] و قد استعمل اللباس لمعنى ستر العورة و الإيمان أو الحياء في آية واحدة من القرآن الكريم :إذ قال الله تعالى: يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا. ولباس التقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلكم يذكرون [9] ، قال القرطبي:" و من جملة

---

[1] انظر: لسان العرب لابن منظور و القاموس المحيط للفيروزآبادي و المصباح المنير للفيومي.
[2] انظر : لسان العرب لابن منظور و القاموس المحيط للفيروزآبادي.
[3] سورة البقرة :١٨٧.
[4] فتح القدير للشوكاني في تفسير الآية المذكورة.
[5] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي في تفسير الآية المذكورة.
[6] سورة النحل:١١٢.
[7] انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي.
[8] انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي.
[9] سورة الأعراف :٢٦.

الإنعام ستر العورة؛ فبيّن أنه سبحانه و تعالى جعل لذريته(ذرية آدم) ما يسترون به عوراتهم، و دلّ على الأمر بالتستر[1] و في معنى لباس التقوى نقل ابن كثير قول بعض العلماء التابعين بأنه الإيمان[2]، و قيل أيضا أن معناه الحياء[3].

أمّا لبست الأمر لبسا بفتح اللام فمعناه خلطته و هو من باب ضرب[4]، و منه قول الله تعالى: ولو جعلنا ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون[5]، أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم[6]. و في الأمر لبس بالضم و لبسة أيضا أي إشكال، و التبس الأمر: أشكل[7].

و يتبيّن مما سبق أنّ اللباس في لغة العرب يستخدم لعدّة معان، منها الستر و الثوب و الغشاء و الإيمان و الحياء و ما إلى ذلك، فهو مانع حسّي للإنسان يحول بينه و بين التكشف و التعري، كما هو ساتر معنوي في نفسه ينأى به عن الإتيان بقبيح الأعمال.

معنى اللباس شرعا :

لم يرد عن أصحاب العلم من الفقهاء و المحدّثين تعريف شرعي محدّد معيّن يخصّ باللباس، و لكنهم فصّلوا القول في مصنّفاتهم و مؤلفاتهم عن أحكامه و شروطه و ضوابطه في ضوء الكتاب و السنّة؛ ليدلوا على ما يحلّ منه أو يحرم أو يستحبّ أو يكره. و يعنى ذلك أنّ اللباس في الشرع يكون متقيدا بقيود خاصة و إن كان اللفظ في اللغة أعمّ ؛إذ هو- كما عرفناه - يطلق في اللغة على كلّ ما يستر به الإنسان عورته و جسده و أعضائه و يتزيّن به سواء كان جائزا أو غير جائز، مستحبّا أو مكروها. و ما دام اللباس في شريعة الإسلام له شروطه و أحكامه التي سوف نتكلم عنها لاحقا، فقد عرّفه الدكتور ناصر بن محمد الغامدي من ناحية الاصطلاح الشرعي قائلا: "بأنّه ما يواري به الإنسان جسده، و يستر سوأته، ويتزيّن به و يتجمّل بين الناس، مما أباحه له الشارع الحكيم سبحانه، و لم يتعارض مع آداب الإسلام و أوامره و نواهيه"[8].

و أثناء شرح التعريف قال أيضا: "مما أباحه له الشارع الحكيم سبحانه، قيد مهمّ في التعريف، يميّز اللباس الشرعي عن اللباس اللغوي(و

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي في تفسير الآية المذكورة.
[2] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير في تفسير الآية المذكورة.
[3] انظر فتح القدير للشوكاني في تفسير الآية المذكورة.
[4] انظر: لسان العرب لابن منظور و القاموس المحيط للفيروزآبادي و المصباح المنير للفيومي.
[5] سورة الأنعام:٩.
[6] فتح القدير للشوكاني في تفسير الآية المذكورة.
[7] المصباح المنير للفيومي.
[8] لباس الرجل، أحكامه و ضوابطه في الفقه الإسلامي،للدكتور ناصر الغامدي،ص١/ ٤٧ ،دار طيبة الخضراء – مكة المكرمة.

العرفي الفاسد)، فليس كل ما يلبس و تستر به العورة في عرف الناس، يجوز لبسه شرعا، بل هناك من أنواع اللباس ما منعه الإسلام، و نهى عنه أتباعه و إن صدق عليه - لغة أو عرفا- أنّه لباس؛ فمثلا: اللباس المصنوع من جلود السباع هو لباس من حيث اللغة؛ إذ يمكن أن يلبس و لكنّه من حيث الشرع ليس لباسا؛ لكون الشارع لم يبح لبس ذلك، و نهى عنه[1].

إذن عرفنا أنّ كلّ ما يسمّيه الناس لباسا لا يعتبر لباسا في اصطلاح الشرع، إلا إذا توفرت فيه تلك الأوصاف و الضوابط التي ثبتت بالأدلة. فما هي تلك الضوابط ؟ سوف نبحثها في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

ضوابط اللباس الشرعي للمرأة:

حرص الإسلام حرصا شديدا أن يقيم المجتمع الإسلامي على ركائز قوية من الطهر و العفاف و الفضيلة، و يحميه من كل ما يدنّس صفوه من المنكرات و الفواحش و قبيح الأعمال و الأخلاق أو يجرّه إلى الإباحية والتحلل والانطلاق وراء الشهوات.

و من هذا المنطلق اهتمّ اهتماما بالغا على التصون في العلاقة بين الرجل والمرأة، و ذلك بالقيام على سدّ الذرائع إلى الفساد، وإغلاق الأبواب التي تهبّ منها رياح الفتنة كالخلوة والتبرج.و جاءت الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية تنير الطريق أمام المرأة المسلمة، لتهتدي إلى ما تلبس و ما لا تلبس فتحفظ به عفتها و كرامتها و أنوثتها، و تعبد ربّها بإيمان صادق و بصيرة كاملة من جهة، و تبعد نفسها عمّا يسبب الإغراء و الإثارة من جهة أخرى.

فيا ترى ما هي الأوصاف و الشروط التي يمكن أن تتعين للباس المرأة المسلمة في ضوء الكتاب و السنة و أقوال السلف؟ أذكرها مجملة فيما يلي:

١- أن يكون ساتراً لجميع البدن عدا ما استثناه القرآن الكريم في آية الزينة من سورة النور. و سيأتي الكلام عنه بالتفصيل في مبحث قادم، حيث دار الجدل حوله بين العلماء منذ قديم الزمان.

٢- أن يكون واسعاً غير ضيق، لا يحدد أجزاء الجسم ويبرز مفاتنه: فإن اللباس الضيق ينافض الستر المقصود من الحجاب، لذلك إذا لم يكن لباس المرأة المسلمة فضفاضا فهو من التبرج المنهي عنه، إذ يصبح كل جزء من أجزاء جسم المرأة محددا بطريقة مثيرة للغرائز الدنيا، فيظهر حجم الأفخاذ والعجيزة ظهورا كاملا، كما تظهر مفاصلها مفصلا مفصلا. وهذا كله يوجب تعلق النفوس الخبيثة والقلوب المريضة. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم قبطية كثيفة كانت مما أهداها دحية الكلبي،

---

[1] نفس المصدر السابق ١/٤٨.

فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مالك لم تلبس القبطية؟" ، قلت: يا رسول الله، كسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مرها فلتجعل تحتها غلالة إني أخاف أن تصف حجم عظامها"[1].

و مما يستأنس به ما روي عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: "يا أسماء إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها"، فقالت أسماء: يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أريك شيئا رأيته بالحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة، فحنتها ثم طرحت عليها ثوبا، فقالت فاطمة: "ما أحسن هذا وأجمله تعرف به المرأة من الرجل، فإن مت أنا فاغسليني أنت وعلي، ولا يدخل علي أحد". فلما توفيت، غسلها علي وأسماء رضي الله عنهما[2].

قال الألباني- رحمه الله- تعليقاً على الحديث: فانظر إلى فاطمة بضعة النبي صلى الله عليه وسلم كيف استقبحت أن يصف الثوب المرأة وهي ميتة، فلا شك أن وصفه إياها وهي حية أقبح وأقبح، فليتأمل في هذا مسلمات هذا العصر اللاتي يلبسن من هذه الثياب الضيقة التي تصف نهودهن و خصورهن و أليتهن و سوقهن و غير ذلك من اعضائهن، ثم ليستغفرن الله تعالى، وليتبن إليه وليذكرن قوله صلى الله عليه وسلم: "الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر "[3].

٣- أن يكون صفيقاً لا يشف: فثياب المرأة إذا لم يكن صفيقاً فإنه يجسد جسمها ومواضع الفتنة فيها، وكذلك إذا كان شفافاً فإنه يصف ما تحته من لون بشرتها ويخالف الستر الذي هو غاية اللباس.

وقد ورد وعيد شديد في النساء اللواتي يلبسن مثل هذه الألبسة التي هي أشبه بالعري إن لم تكن فتنتها أشد. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا"[4]. ومعنى "كاسيات عاريات" أن ثيابهن لا تؤدي وظيفة الستر، فتصف ما تحتها لرقتها وشفافيته. و قد تحقق قول نبينا

[1] أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة(٤٤١/١)،و أحمد و البيهقي بسند حسن.
[2] أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤٣/٢) و غيره ، وبين ابن التركماني ضعفه فقال: في سنده من يحتاج إلى كشف حاله.
[3] أخرجه الحاكم (٢٢/١) من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، وقال:صحيح على شرط الشيخين. و و فقه الذهبي.
[4] رواه مسلم(٢١٢٨).

محمد صلى الله عليه وسلم في زماننا حيث كثرت لابسات هذا النوع من الثياب الرقيقة الشفافة كثرة لاتحتاج إلى إقامة حجة أو دليل، بل هو ظاهر للأعيان.

٤- أن لا يشبه لباس الرجال: فالمعروف أن للرجال ملابس خاصة وللنساء ملابس خاصة أيضا.. فإذا كان الرجل معتادا أن يلبس لباسا معينا، بحيث يعرف أن هذا اللباس هو لباس رجل... فليس للمرأة أن ترتدي مثل هذا اللباس، لأنه يحرم عليها لقوله صلى الله عليه وسلم:" لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل "[1]. و كذلك قد لعن النبي صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال كما جاء في رواية ابن عباس رضي الله عنهما لدى البخاري.

وهذه الأحاديث نص في تحريم التشبه مطلقا بالرجال سواء في اللباس أو في غيره، ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تحرص عن الابتعاد عن التشبه بالرجال في لباسها سواء كانت في البيت أو في خارج البيت لا سيما في عصرنا هذا، حيث اختلطت الأمور ولم يعد المسلم يميز في كثير من بلاد المسلمين بين الرجل والمرأة، لشدة التشبه بينهما في اللباس، وقد اكتسحت هذه الموجة جموعا من المحجبات، فصرن يلبسن من ثياب الرجال تحت عباءاتهن مما يسقطهن في هذا المحظور والله المستعان.

و مما ينبغي أن ننبّه إليه في هذا المقام أن الأحاديث أنكرت أمر التشبه بصفة عامة في اللباس وغيره، غير أنه في مجال اللباس لاينكر أن تكون قطعة من ملابس المرأة مشابهة لملابس الرجال، والعبرة بالهيئة العامة بحيث إذا شوهدت المرأة المسلمة- ولو من بعيد- لم تشتبه مع الرجل، إلا أن تكون هذه القطعة مما تعارف المجتمع أنها من اختصاص الرجال تماما، أي أن للعرف اعتباراً كبيراً .وللتدليل على أن المقصود هو النهي عن التشبه في الهيئة العام لامجرد الاشتراك في قطعة من الثياب نورد الحديث الآتي:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «يارسول الله جئت لأهب لك نفسي»، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعّد النظر إليها وصوّبه ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست فقام رجل من أصحابه فقال» :أي رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها» فقال: «هل عندك من شيء؟» قال: «لا والله يارسول الله.. ولكن هذا إزاري فلها نصفه». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ماتصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبسته لم يكن عليك شيء». رواه البخاري ومسلم.

[1] ابوداؤد(٤٠٩٨)، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، و سنده صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث ابن عباس: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين» :«...فأما هيئة اللباس فتختلف باختلاف عادة كل بلد، فرب قوم لايتفرق زي نسائهم عن رجالهم في اللبس لكن يمتاز النساء بالاحتجاب والاستتار» ويمكن أن يكون الاحتجاب والاستتار بالخمار مثلا أو الجلباب.

٥- أن لا يشبه لباس الكافرات: وذلك بأن تفصل المرأة المسلمة لباسها تفصيلاً يتنافى مع حكم الشرع وقواعده في موضوع اللباس، ويدل على تفاهة في العقل وفقدان للحياء مما ظهر في هذا العصر وانتشر باسم الموديلات التي تتغير من سيئ إلى أسوأ. وكيف ترضى امرأة شرفها الله بالإسلام ورفع قدرها، أن تكون تابعة لمن يملي عليها صفة لباسها، من مصممي الأزياء من اليهود و النصارى و المشركين الذين يحبون أن ينتشر الفساد و تشيع الفاحشة بين المسلمين و المسلمات. و لقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من التشبه باليهود والنصارى أو غيرهم من المشركين في ملابسهم و عاداتهم و تقاليدهم بقوله: "من تشبه بقوم فهو منهم"[1]. و نهى عن ملابسهم بصفة خاصة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ثوبين معصفرين فقال: " إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها "[2].

٦- أن لا يكون لباس شهرة: ولباس الشهرة هو الذي تلبسه المرأة لشد انتباه الناس إليها، سواء كان هذا الثوب رفيعا أو وضيعا، لأن علة التحريم هي تحقق الشهرة في الثياب، إذ روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من لبس ثوب شهرة في الدنيا، ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارا"[3].

و هذا الشرط غفل عنه كثير من المسلمات إذ يظنن أن تفرد الثوب بوصف يجعله مشتهراً بين الناس ليس من المحظور في لبس الحجاب، ولذلك تفشت ظاهرة التنافس في مثل هذا اللباس والله المستعان.

هذه الشروط هي المعتبرة لدى العلماء في لباس المرأة، إذا أرادت الستر والعفاف والحشمة والحياء، وطاعة الله ورسوله، و هي كما رأيت مستقاة من أدلة الكتاب و السنة. و يشترك في أكثرها لباس الرجل أيضا.

و من باب الاعتراف بالفضل لصاحبه لابدّ من الإشارة إلى أن الشيخ محمد ناصرالدين الألباني هو الذي سبق إلى وضع الشروط للباس المرأة بهذه الدقة و

---

[1] رواه ابوداؤد (٤٠٣١) و غيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، و سنده صحيح.
[2] رواه مسلم(٢٠٧٧).
[3] رواه أبوداؤد(٤٠٢٩) و غيره و سنده حسن.

باطن القدم"[1]. و وافقه المرداوي في " الإنصاف"[2].

وقال الشيخ ابن عثيمين في "الشرح الممتع" : "وليس هناك دليل واضح على هذه المسألة ، ولهذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن الحرة عورة إلا ما يبدو منها في بيتها وهو الوجه والكفان والقدمان. وقال : إن النساء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كنّ في البيوت يَلْبَسْن القمُص ، وليس لكل امرأة ثوبان ، ولهذا إذا أصاب دم الحيض الثوب غسلته وصلت فيه ، فتكون القدمان والكفان غير عورة في الصلاة ، لا في النظر . وبناء على أنه ليس هناك دليل تطمئن إليه النفس في هذه المسألة فأنا أقلد شيخ الإسلام فيها ، وأقول : إن هذا هو الظاهر ، إن لم نجزم به : لأن المرأة حتى وإن كان لها ثوب يضرب على الأرض فإنها إذا سجدت سوف يظهر باطن قدميها"[3].

اللباس المستحب :

لكن يستحب للمرأة من باب الأخذ بالزينة كما أمر الله سبحانه و تعالى في كتابه و أشرنا إليه في بداية هذا المبحث، أن تصلي في درعٍ سابغ يصل إلى القدمين، وخمار يغطي رأسها وعنقها و جيبها، و إزار مع الدرع أو جلبابٌ تلتحف بهِ من فوق الدرع، والغرض من ذلك الستر، فقد روى ابن كثير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «تصلي المرأة في ثلاثة أثواب: درع، وخمار، وإزار»[4]. و روى ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: " إذا صلت المرأة فلتصلّ في ثيابها كلها : الدرع والخمار والملحفة"[5]. و الملحفة هي الملاءة التي تلتحف بها المرأة فوق ثيابها مثل[6]. و يسمى الجلباب و الملاءة.

يقول ابن قدامة رحمه الله:" قال أحمد : قد اتفق عامتهم على الدرع و الخمار ، و ما زاد فهو خير و أستر ، و لأنه إذا كان عليها جلباب فإنها تجافيه راكعة وساجدة، لئلا تصفها ثيابها، فتبين عجيزتها ومواضع عورتها"[7].

---

[1] حجاب المرأة و لباسها في الصلاة لابن تيمية ص ١٤و ١٥، ضمن مجموعة رسائل في الحجاب و السفور ، طبع و نشر وزارة الشؤون الإسلامية و الأوقاف و الدعوة و الإرشاد، السعودية، ط٤/ ١٤٢٣هـ.
[2] انظر : الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين، الجزء الثاني ، باب شروط الصلاة من كتاب الصلاة(كتاب الكتروني).
[3] الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين، الجزء الثاني ، باب شروط الصلاة من كتاب الصلاة(كتاب الكتروني).
[4] قال ابن كثير: «إسناده صحيح، على شرطهما». «مسند الفاروق» (١٥١/١).
[5] مصنف ابن أبي شيبة(٦٠٢١)، كتاب الصلاة، أبواب اللباس في الصلاة، باب المرأة في كم ثوب تصلّي.
[6] انظر: المصباح المنير للفيومي، و القاموس المحيط للفيروزآبادي.
[7] المغني لابن قدامة ٢/ ٣٣٠، بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه ايضا عن ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها " صلت في درع و خمار " [1].

فهذه الأحاديث و أمثا لها تدل على أنه يشترط لصحة صلاة المرأة أن تصلى على الأقل في خمار و قميص بحيث يكونان ساترين كثيفين لايشفان عما تحتهما كما يجب أن يكون القميص سابغا فيغطى كامل جسمها؛ لأن ستر العورة من شروط صحة الصلاة عند الجمهور كما قال الحافظ في الفتح[2] ، و المرأة الحرة كلها عورة بدليل حديث الحائض إلا ما تم استثناؤه في آية الزينة: ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها [3] ، و هو الوجه و الكفان و القدمان على أرجح الأقوال.

أما الوجه فيجوز لها عدم ستره في صلاتها بلا خلاف؛ إذ هي مامورة بالاختمار، و الخمار ما تغطى به المرأة رأسها[4] ، قال ابن قدامة رحمه الله : " لا يختلف المذهب في أنه يجوز للمرأة كشف وجهها في الصلاة و لا نعلم فيه خلا فا بين أهل العلم"[5]. بل قال: " ويكره أن تنتقب المرأة وهي تصلي أو تتبرقع. قال ابن عبد البر: و قد أجمعوا على أنّ على المرأة أن تكشف وجهها في الصلاة و الإحرام، و لأنّ ذلك يخلُ بمباشرة المصلى بجبهتها وأنفها، و يغطى فاها، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه [6].

و أما الكفان و القدمان، فقد ذهب جمهور أهل العلم إلى جواز إبدائها الكفين والأرجح في القدمين أيضا جواز الكشف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " يجوز لها كشف الوجه بالإجماع و إن كان من الزينة الباطنة، و كذلك اليدان يجوز إبداهما في الصلاة عند جمهور العلماء كأبي حنيفة و الشافعي و غيرهما، و هو إحدى الروايتين عن أحمد، و كذلك القدم يجوز إبداؤه عند أبي حنيفة و هو الأقوى فإن عائشة جعلته من الزينة الظاهرة، قالت: {ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها} قالت: "الْفَتَخُ" حَلَقٌ من فِضةٍ تكون في أصابع الرجُلين. رواه ابن أبي حاتم. فهذا دليلٌ على أن النساء كنّ يُظهرن أقدامهن أوّلا ، كما يُظهرن الوجه واليدين، فإنهن كنّ يُرخين ذُيولَهُن، فهي إذا مشت، قد يظهر قدمها. ولم يكنّ يمشين في خِفافٍ وأحذية. وتغطية هذا في الصلاة فيه حرجٌ عظيم، وأم سلمة قالت: "تصلي المرأة في ثوبٍ سابغٍ يغطي ظهور قدميها". فهي إذا سجدت، قد يبدو

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة (٦٠١٧). كتاب الصلاة، أبواب اللباس في الصلاة، باب المرأة في كم ثوب تصلّي.
[2] انظر : نيل االأوطار للشوكاني ٢/ ٥٥،دار الجيل ، بيروت ، ط ١٩٧٣م.
[3] سورة النور: ٣١.
[4] انظر لسان العرب لابن منظور.
[5] المغني لابن قدامة ٢/ ٣٢٦، بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ط ٣/ ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
[6] المغني لابن قدامة ٢/ ٣٣١، بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

باطن القدم"[1]. و وافقه المرداوي في " الإنصاف" [2].

وقال الشيخ ابن عثيمين في "الشرح الممتع" : "وليس هناك دليل واضح على هذه المسألة ، ولهذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن الحرة عورة إلا ما يبدو منها في بيتها وهو الوجه والكفان والقدمان. وقال : إن النساء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كنّ في البيوت يَلْبَسْنَ القمُص ، وليس لكل امرأة ثوبان ، ولهذا إذا أصاب دم الحيض الثوب غسلته وصلت فيه ، فتكون القدمان والكفان غير عورة في الصلاة ، لا في النظر . وبناء على أنه ليس هناك دليل تطمئن إليه النفس في هذه المسألة فأنا أقلد شيخ الإسلام فيها ، وأقول : إن هذا هو الظاهر ، إن لم نجزم به ؛ لأن المرأة حتى وإن كان لها ثوب يضرب على الأرض فإنها إذا سجدت سوف يظهر باطن قدميها" [3].

اللباس المستحب :

لكن يستحب للمرأة من باب الأخذ بالزينة كما أمر الله سبحانه و تعالى في كتابه و أشرنا إليه في بداية هذا المبحث، أن تصلي في درعٍ سابغ يصل إلى القدمين، وخمار يغطي رأسها وعنقها و جيبها ، و إزار مع الدرع أو جلبابٌ تلتحف بهِ من فوق الدرع، والغرض من ذلك الستر، فقد روى ابن كثير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «تصلي المرأة في ثلاثة أثواب: درع، وخمار، وإزار»[4]. و روى ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: " إذا صلت المرأة فلتصلّ في ثيابها كلها: الدرع والخمار والملحفة"[5]. و الملحفة هي الملاءة التي تلتحف بها المرأة فوق ثيابها مثل[6]. و يسمى الجلباب و الملاءة.

يقول ابن قدامة رحمه الله:" قال أحمد : قد اتفق عامتهم على الدرع و الخمار ، و ما زاد فهو خير و أستر ، و لأنه إذا كان عليها جلباب فإنها تجافيه راكعة وساجدة، لئلا تصفها ثيابها ، فتبين عجيزتها ومواضع عورتها" [7].

---

[1] حجاب المرأة و لباسها في الصلاة لابن تيمية ص ١٤و ١٥ ، ضمن مجموعة رسائل في الحجاب و السفور ، طبع و نشر وزارة الشؤون الإسلامية و الأوقاف و الدعوة و الإرشاد ، السعودية، ط٤/ ١٤٢٣هـ.
[2] انظر : الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين، الجزء الثاني ، باب شروط الصلاة من كتاب الصلاة(كتاب الكتروني).
[3] الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين، الجزء الثاني ، باب شروط الصلاة من كتاب الصلاة(كتاب الكتروني).
[4] قال ابن كثير: «إسناده صحيح، على شرطهما». «مسند الفاروق» (١٥١/١).
[5] مصنف ابن أبي شيبة(٦٠٢١)، كتاب الصلاة، أبواب اللباس في الصلاة، باب المرأة في كم ثوب تصلّي.
[6] انظر: المصباح المنير للفيومي، و القاموس المحيط للفيروزآبادي.
[7] المغني لابن قدامة ٢/ ٣٣٠، بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

الفقه الإسلامي

(الحلقة الأخيرة)

نظام الميراث في القرآن

الأستاذ محمد عناية الله أسد سبحاني
عميد كلية القرآن بالجامعة الإسلامية شانتابرم، كيرالا

موقف ابن عباس أقرب إلى القرآن:

ولقد روي عن البيهقي عن ابن عباس قال:

"جَاءَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَجُلٌ فَقَالَ : رَجُلٌ تُوُفِّيَ وَتَرَكَ ابْنَتَهُ وَأُخْتَهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ فَقَالَ : لِلابْنَةِ النِّصْفُ وَلَيْسَ لِلأُخْتِ شَيْءٌ مَا بَقِيَ فَهُوَ لِعَصَبَتِهِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ قَضَى بِغَيْرِ ذَلِكَ جَعَلَ لِلابْنَةِ النِّصْفَ وَلِلأُخْتِ النِّصْفَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ؟ قَالَ مَعْمَرٌ : فَلَمْ أَدْرِ مَا وَجْهُ ذَلِكَ؟ حَتَّى لَقِيتُ ابْنَ طَاوُسٍ فَذَكَرْتُ لَهُ حَدِيثَ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَلْتُمْ أَنْتُمْ لَهَا نِصْفٌ وَإِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ} (١).

لعل تلك الرواية أوجه وأرجح من غيرها، حيث جاءت بموقف هو أقوى، وأقرب إلى لفظ القرآن، ولو كان المراد بالولد هو الابن ، دون البنت، لما عدل النص عن الابن إلى الولد، لكونه أوضح وأبين في المقصود .

فإذا كانت - مثلاً - بنت واحدة، وأخت شقيق، فلتأخذ البنت النصف فرضا، وليكن النصف الباقي ردا إليها، وإذا كانت - مثلاً - عشر بنات وأخت شقيق، فلتأخذ البنات الثلثين فرضا، وليكن الثلث الباقي رداً إليهن، ولايصرف شيء منه إلى الأخت الشقيق؛ لأنها لا ترث إذا وجدت البنات، وهن من الولد .

وكذلك الأمر، إذا كان مع البنت أخ شقيق لأخ الشقيق ليس له في الميراث نصيب، في حالة وجود البنت أو البنات .

هذا الذي يستفاد من آية الصيف، وإذا استفيد شيء من الآية، فهو أحق بالأخذ وأحرى بالاتباع. وليس لنا أن نرضى به بدلاً أو نبغي عنه حولاً .

رواية عن ابن عباس وهو ينكرها؟

قد يقال: هناك حديث، فماذا نفعل بذلك الحديث، وهوحديث مشهور مستفيض، وهو يمنع هذا القول، حيث روي ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«ألحقوا الفرائضَ بأهلِها فما بقيَ فهوَ لأولَى رجُلٍ ذكَرٍ» .

نقول: قد ذكر أبو جعفر الطوسي في تهذيب الأحكام له عن أبي طالب

الأنباري عن محمد بن أحمد البريري عن بشر بن هارون ثنا سفيان عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب قال: جلست إلى ابن عباس بمكة فقلت روي أهل العراق عن طاووس عنك مرفوعا ما أبقت الفرائض فلأولي عصبة ذكر قال: ابلغ أهل العراق إني ما قلت هذا، ولا رواه طاووس عني، قال حارثة : فلقيت طاووسا فقال: لا والله ما رويت هذا، وإنما الشيطان ألقاه على ألسنتهم. قال: ولا أراه إلا من قبل ولده، وكان على خاتم سليمان بن عبد الملك، وكان كثير الحمل على أهل البيت .

ذكر العسقلاني هذا الكلام ثم قال تعليقاً عليه :

قلت: ومن دون الحميدي لا يعرف حاله، فلعل البلاء من بعضهم، والحديث مذكور في الصحيحين (٢) .

فإذا تبرأ ابن عباس وتبرأ طاووس من هذا الكلام، فماذا بقي فيه حتى نتمسك به؟ ولو عرف الشيخان براءة ابن عباس منه، لما ذكراه في الصحيحين .

سهام الزوج والزوجة مع الأخ :

ومما يستفاد من آية الصيف أنه إذا اجتمع الأخ الشقيق، أو الأخ لأب مع الزوج أو الزوجة في الميراث ، ولم يكن هناك ولد ، فالأخ يسدّ مسدّ الولد، فينزل الزوج من النصف إلى الربع، وإذا كانت الزوجة، أنزلها من الربع إلى الثمن .

فإذا ماتت المرأة - مثلاً - عن زوج، وأم، وإخوة أشقاء، فللزوج الربع، وللأم السدس، والباقي يأخذه الإخوة الأشقاء .

ومن هنا تحل تلك المشكلة التي سموها أحياناً، المسألة الحمارية! وأخرى، المسألة الحجرية! وهي أن تموت المرأة - مثلاً - عن زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء .

فقالوا المسألة من ستة: للزوج النصف(ثلاثة) وللأم السدس(واحد) وللإخوة لأم الثلث(اثنان) ولم يبق للأشقاء شيء .

ولكن إذا رجعنا إلى القرآن، تحولت المسألة الحمارية أو الحجرية، إلى مسألة إنسانية معقولة، فالمسألة تكون من اثني عشر: الزوج يأخذ الربع: ثلاثة، والأمم تأخذ السدس: اثنين، والسبع الباقي يكون للإخوة، بحيث يكون ثلثة للإخوة لأم، والثلثان للإخوة الأشقاء،أو للإخوة لأب، أو لهم جميعا إذا اجتمعوا .

ولقد ذكروا أن المسألة الحمارية حدثت في عهد سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وذكروا فيها آراء للصحابة، وذكروا اختلافهم فيما بينهم، ولكن هذه الروايات ليس لهم خطم، ولا أزمة! و أمارات الوضع والكذب بادية عليها، وما كان عمر، ولا أصحابه ليحكموا في مثل هذه القضايا باجتهادهم، والحكم واضح صريح في قرآنهم !

مسألة العول وما قيل فيها :

ومن المسائل التي كانت موضع حيرة، وموضع جدال ونقاش عند الناس،

وكان بإمكانهم أن يعالجوها بسهولة في ضوء آية الصيف، من غير أن يختلفوا فيما بينهم، من تلك المسائل مسألة العول. وهي أن تكون سهام أصحاب الفرائض أكثر من سهام المال، بأن يكون هناك تلثان ونصف، كالزوج مع الأختين لأب وأم، أو نصفان وثلث، كالزوج مع الأخت الواحدة لأب وأم، ومع الأم (٣).

وقيل: لم يكن العول في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد أبي بكر، وأول من قال بالعول في الإسلام، هو العباس بن عبد المطلب، فإنه قال لعمر، حين وقعت هذه الحادثة: أعيلوا الفرائض.

وكان ابن عباس ينكر العول في الفرائض أصلا، وقيل لابن عباس: من أول من أعال الفرائض؟ قال: ذلك عمر بن الخطاب، أتي بفريضة فيها ثلثان ونصف، أونصفان وثلث فقال لا أدري من قدمه الله فأقدمه، ولا من أخره الله فأؤخره، وأعال الفريضة. وأيم الله لو قدم من قدمه الله تعالى، وأخر من أخره الله تعالى، ما عالت فريضة قط، فقيل: ومن الذي قدمه الله يا ابن عباس؟ قال: من نقله الله من فرض مقدر إلى فرض مقدر، فهو الذي قدمه الله تعالى، ومن نقله الله تعالى من فرض مقدر إلى غير فرض مقدر، فهو الذي أخره الله تعالى.

وعن عطاء، وأن رجلا سأل ابن عباس فقال: كيف يصنع في الفريضة العائلة؟ قال أدخل الضرر علي من هو أسوأ حالا، قيل: ومن الذي هو أسوأ حالا؟ قال البنات والأخوات، فقال عطاء: ولا يغني رأيك شيئا، ولو مت لقسم ميراثك بين ورثتك على غير رأيك، فغضب وقال: قل لهؤلاء الذين يقولون بالعول حتى نجمع، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، إن الذي أحصى رمل عالج عددا، لم يجعل في مال، نصفين وثلثا، فإذا ذهب هذا بالنصف، وهذا بالنصف، فأين موضع الثلث؟ فقال: لم تقل هذا في زمن عمر رضي الله عنه، قال كان رجلا مهيبا، فهبت. حتى قال الزهري: لولا أنه يقدم في العول قضاء إمام عادل ورع لما اختلف اثنان على ابن عباس رضي الله عنه في قوله في مسألة المباهلة، يعني مسألة العول (٤).

مسألة العول والقرآن:

ولا يوجد حل لهذا الخلاف إلا في آية الصيف وإذا رجعنا إلى آية الصيف، وجدناها تحل هذه المعضلة بسهولة، فإنه إذا كان الزوج مع الأختين لأب وأم، لم يأخذ النصف، وإنما يأخذ ما يأخذه في حالة وجود الولد، وهو الربع، والأختان تأخذان الثلثين فرضا، وتأخذان الباقي بالتعصيب.

وإذا كان الزوج مع الأخت الواحدة لأب وأم، ومع الأم، أخذ الزوج الربع، وأخذت الأم السدس، مثلما تأخذ في حالة وجود الولد، وأخذت الأخت النصف فرضا، وأخذت الباقي بالتعصيب. وهكذا دواليك.

فالواقع أننا في غنى عن اللجوء إلى العول، وهو ليس من كتاب الله في

شيء، وما نظن أنه بدأ من عهد سيدنا عمر رضي الله عنه، ولا من عهد الخلفاء الراشدين، وإنما نجم في عهد متأخر، حينما قل الرجوع إلى كتاب الله، وكثر الوضع في شرع الله، وكانت من الأعداء جهود مكثفة، حتى يدخلوا في دين الله ما ليس منه، وما كان علم المواريث بنجوة منه، والأعداء كانوا يعرفون جيدا أن بضاعتهم لن تروج في سوق المسلمين، إلا إذا أسندوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه!

فعلوا ذلك بكل لباقة وذكاء، حتى التبس علينا الأمر، ووقعنا فيما أرادوا، وهم نجحوا فيما خططوا نجاحا باهرا، ربما لم يتخيلوه!

وهناك كثير من أقوال الصحابة في المواريث، لا توجد لها أسانيد، وإذا كانت لبعضها أسانيد، فهي لا تخلو من آفات، ولا تخلو من علات، وهي لا تصلح أبدا لأن تبني عليها أحكام، ولقد سبقت لها نماذج، وستتبعها أمثالها ونظائرها، إذا اقتضى الأمر.

لقد تنفسنا في شرح آية الصيف، وبيان مفهوم الكلالة بأطرافه وجوانبه، حتى أروينا، وارتوينا، وشبعنا وأشبعنا، وليس ذلك إلا من فضل الله ربنا، فنحمده تعالى حمدا يليق بجلاله، ونثني عليه بجميع آلائه وصفاته، ثم نأتي إلى قوله عز من قائل:

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ} [النساء:١١].

وكان الأصل أن نبدأ حديثنا بهذه الآية، ولكن الحديث عن الكلالة كان حديثا ذا شجون، وكانت له صلة بهذه الآية كذلك، فرأينا من الأفضل أن نبدأ به، ونوفيه حقه من الإيضاح والبيان، حتى يكون ذلك معوانا لنا في استيعاب الموضوع، ونسأل ربنا أن يفتح علينا ما خفي من كتابه، ويمنحنا ما نحتاج إليه من كنوزه، إنه سميع قريب. وبعد:

فمن رحمة الله سبحانه، أنه أوصانا في أولادنا، ولكن ما مناسبة هذه الوصية؟ وما المراد بالأولاد في الآية؟ من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى أمرنا قبل ذلك في سورة البقرة بالوصية حيث قال:

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ❖ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ❖ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة البقرة: ١٨٠ـ ١٨٢].

فربنا سبحانه وتعالى أمرنا بالوصية في أموالنا إذا حضرنا الموت، وكان من شروط الوصية ألا يكون هناك جنف أو إثم، وكان واجبا على من خاف من موص جنفا أو إثما، أن يصلح بينهم، ولكن أداء الحقوق بدون جنف أو إثم ليس سهلا، بل شبه مستحيل، إذا لم يكن هناك توجيه وتشريع مفصل من الله، حتى ولو أراد

شخص أن يؤدي الحقوق إلى أهلها ويضع الأمور في نصابها، وكان جاداً في أمره، وصادقا في نيته، فلن يقدر عليه، لأنه بنقصه العلم، ولقد صدق ربنا إذ قال:

{آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [سورة النساء: ١١]. فالناس كانوا يوصون، ويوصون تطبيقا لأمر الله، ولكن كانوا يخطؤون، بطبيعة الحال، ويختلفون ويزيدون وينقصون، فشخص يزيد لأبيه، وشخص يزيد لأمه، وشخص يزيد لأبنائه، دون آبائه، وشخص يزيد لبناته، دون أبنائه، وشخص يوصى لأخواته، دون زوجته، وشخص يوصي لزوجته، دون إخوته، وشخص يوصى للرجال ويحرم النساء، وهكذا.

ولا يخفى كم يكون حرج، وكم تكون فوضى، إذا ترك الأمر هكذا.

سياق لآية المواريث:

فالموقف كان يقتضي أن يأتي من الله بيان، ولا يبعد أن يكون قد كثر من الناس سؤال واستفتاء، فربنا العليم الحكيم استجاب للمؤمنين، وأنزل آيات المواريث، وفصل فيها الحقوق والأنصبة، وسماها وصية من الله.

كان ربنا أمرنا أولا أن نوصي، ولما رآنا قد وقعنا في الحرج والشطط، علمنا كيف نوصي، حتى لا نقع في الجنف والإثم، ونكون مقسطين في الوصية.

والجدير بالذكر أن آيات المواريث جاءت في سياق أموال اليتامى، حيث قال تعالى، قبل أن يفصل المواريث: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [سورة النساء: ١٠]

فالأصل في هذه الآيات هو الحفاظ على حقوق اليتامى، ثم الحفاظ على حقوق الآخرين، من الوالدين والأقربين، يقول شيخنا الفراهي:

"مقام هذه الآية ينبيء أنها نزلت لحفظ حقوق اليتامى، وفاضت بركاتهم لسائر الوارثين، وكذلك أحكام النكاح"(٥).

بعد ما علمنا مناسبة نزول تلك الآيات، لم يعد عسيراً علينا أن نعرف أن المقصود من تلك الآيات، ليس فقط توزيع أموال الميت بين الأقربين، وإنما المقصود منها بالدرجة الأولى، الحفاظ على حقوق الضعفاء، وعلى رأسهم اليتامى.

لفظ الأولاد وشموله:

ولفظ الأولاد، كما هو معلوم، يشمل البنين والبنات، ويشمل أبناء الابن وبنات الابن، وإن سفلوا كما يشمل أبناء البنت، وبنات البنت، وإن سفلوا.

وليست دلالة الأولاد على أبناء الابن أو بنات الابن، أو أبناء البنت أو بنات البنت عن طريق المجاز، وإنما هي على الحقيقة، فلا يصح القول بأنه لا يطلق هذا اللفظ على ابن الابن، أو بنت الابن، أو ابن البنت أو بنت البنت، إذا صح اطلاقه على الابن أو البنت. فقد يطلق اللفظ على جميع معانيه معا، وفي وقت واحد، مثل قوله تعالى:

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٢٣].

قال الفخر الرازي رحمه الله:

"كل امرأة رجع نسبك إليها بالولادة من جهة أبيك أو من جهة أمك بدرجة أو بدرجات بإناث، رجعت إليها أو بذكور فهي أمك. ثم ههنا بحث هو أن لفظ الأم لا شك أنه حقيقة في الأم الأصلية، فأما في الجدات فإما أن يكون حقيقة أو مجازا، فإن كان لفظ الأم حقيقة في الأم الأصلية في الجدات، فإما أن يكون لفظا متواطئا أو مشتركا فإن كان لفظا متواطئا أعني أن يكون لفظ الأم موضوعا بإزاء قدر مشترك بين الأم الأصلية وبين سائر الجدات فعلى هذا التقدير يكون قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} نصا في تحريم الأم الأصلية وفي تحريم جميع الجدات، وأما إن كان لفظ الأم مشتركا في الأم الأصلية وفي الجدات، فهذا يتفرع على أن اللفظ المشترك بين أمرين هل يجوز استعماله فيهما معا أم لا؟ فمن جوزه حمل اللفظ ههنا على الكل، وحينئذ يكون تحريم الجدات منصوصا عليه" (٦).

وقال: "كل انثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو بدرجات بإناث أو بذكور فهي بنتك وأما بنت الابن وبنت البنت فهل تسمي بنتا حقيقة أو مجازا؟ فالبحث فيه عين ما ذكرناه في الأمهات" (٧).

وقال: "النوع الثالث من المحرمات، الأخوات: ويدخل فيه الأخوات من الأب والأم معا، والأخوات من الأب فقط، والأخوات من الأم فقط". (٨).

وقال: "اتفقوا على أن هذه الآية تقتضي تحريم حليلة ولد الولد على الجد، وهذا يدل على أن ولد الولد يطلق عليه أنه من صلب الجد، وفيه دلالة على أن ولد الولد منسوب إلى الجد بالولادة" (٩).

ثبت المراجع:

١. سنن الكبرى للبيهقي ٢٣٣/٦.
٢. تهذيب التهذيب ج٢٦٨/٥.
٣. انظر المبسوط للسرخسي ١٦١/٢٩، دار المعرفة بيروت، لبنان
٤. انظر المبسوط للسرخسي ١٦١/٢٩.
٥. مذكرات القرآن للفراهي مخطوط.
٦. التفسير الكبير ٢٨/١٠، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع
٧. أيضاً ٢٩/١٠.
٨. أيضاً ٢٩/١٠.
٩. أيضاً ٣٦/١٠

دراسات أدبية وتاريخية :

حركة رسالة الإنسانية ودورها في مكافحة الطائفية والعنف

بقلم : الأستاذ واضح رشيد الحسني الندوي

تعد حركة رسالة الإنسانية من المجهودات الإيجابية لإزالة الشكوك والشبهات في أذهان غير المسلمين بالنسبة للمسلمين والتي تسربت إليهم من خلال التعليم والإعلام الجانبي الميال إلى الأغلبية ، والذي يستغله أحيانا بعض المسئولين الصغار ، ويتخذون مواقف لا توافق التصور العلماني ، بل تزيد كراهية المسلمين في الأغلبية ، كما تبعد الأغلبية عن المسلمين والإسلام ، ودراسة تاريخه ، وتعد حركة الإنسانية من أقوى الحركات في الهند ، التي نالت القبول في مدة قصيرة .

دواعي إنشاء حركة رسالة الإنسانية :

أنشئت حركة رسالة الإنسانية في عام ١٩٧٤م ، بعد سلسلة من الاجتماعات واللقاءات التي كان يعقدها سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي منذ عام ١٩٥٣م من أجل إيجاد وعي إنساني ، وترسيخ المثل الخلقية والتعامل النبيل بين مختلف أفراد المجتمع ، وقد حركته الاتجاهات التي ظهرت في الهند إثر الاستقلال بدعوة بعض الزعماء الطائفيين والساسة الانتهازيين ، والصراعات بين مختلف الطبقات التي ثارت لعصبيات اللغة ، والثقافة ، والعقيدة ، والقومية ، والإقليمية الضيقة ، والعنصرية ، وأدت هذه الصراعات إلى سفك الدماء ، وانتهاك كرامة الإنسان ، ونشوء العصبيات ، والإسراع إلى العنف والإرهاب ، وبرزت الانتماءات الضيقة ، والنزعات الفكرية والسياسية الطائشة ، باستغلال العواطف الإنسانية للمصالح الذاتية ، وتغلب الشره لرفع مستوى الحياة ، وكسب المال بإهمال المثل والقيم ، وعدم رعاية الحقوق ، وكرامة الإنسان .

وازداد هذا الاتجاه خطورة بالدعوة إلى رفع مستوى المعيشة بدون دعم الوازع الخلقي في الإنسان ، وعدم ترسيخ المثل والقيم ، ولم يفكر زعماء البلاد خلال وضع القاعدة الصناعية للبلاد في وسائل إقرار القيم ، ومبادئ الأخلاق ، كما أغفلوا تعاليم الأديان ، ومثل الأخلاق ، في وسائل التعليم والإعلام ، فانحرف المجتمع إلى كسب المصلحة الذاتية ، وتنمية الموارد مهما كلف ذلك

من ثمن ، فشاهدت البلاد مآسي إنسانية نتيجة للهوس لكسب المال .

إقامة اتصالات وروابط بالقادة والزعماء :

كان سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي يتابع هذا الوضع ، وكان يقلقه هذا التدهور السريع في الحياة العامة ، وشعر سماحته بأن البلاد كسفينة كبيرة ، فإذا انحرفت هذه السفينة إلى الطوفان ، وغرقت ، فكل من يركبها يواجه المصير المشئوم ، فعزم على بذل جهده لتحويل اتجاه هذه السفينة ، وقرر أن يوجه الدعوة إلى إيجاد الوعي الإنساني ، برسائل إلى القادة والمفكرين في البلاد ، يلفت أنظارهم إلى إعداد خطة لإصلاح الوضع ، وأجرى مقابلات شخصية مع كبار القادة الاجتماعيين ، والمصلحين الدينيين من متخلف الديانات الكبرى في انهند ، وكان من هذا القبيل لقاؤه مع "ونوبابهاوي" و "جي بركاش ناراين" ، و "سائين بابا" ، أحد كبار الكهنة الهندوس ، وزعماء الحركات الهندوكية الطائفية ، و وجه رسائل إلى رئيسة وزراء الهند "إنديرا غاندي" شرح فيها الوضع العام ، ولفت الانتباه إلى خطورة هذا الوضع .

تنظيم الاجتماعات المشتركة والتحدث فيها :

بالإضافة إلى هذه الجهود الشخصية ، تحدث سماحة الشيخ الندوي في اجتماعات عامة عقدت خصيصا لهذا الغرض في كبرى مدن الهند ، و وجه الدعوة للحضور فيها إلى أتباع مختلف الديانات ، وأكد على اتباع المثل في الحياة ، واحترام كرامة الإنسان ، وإيجاد مجتمع إنساني نزيه يشترك فيه متبعو جميع الأديان وأعضاء المجتمعات اللسانية والثقافية والعنصرية المختلفة بدون عصبية للجنس أوالعنصر أو العقيدة ، وقد عقدت هذه الاجتماعات في مختلف المدن و ولايات الهند الشمالية ، وافتتحها من مدينة "لكناؤ" التي ينتمي إليها سماحة الشيخ الندوي ، وسميت هذه الخطب المثيرة التي دعا فيها إلى التمسك بالقيم في السلوك ، ورعاية كرامة الإنسان ، والارتفاع عن النزعات والعصبيات باسم "رسالة الإنسانية" ونشرت ، فنالت قبولا عاما ونقلت إلى لغات هندية محلية متعددة.

التجاوب الكبير من غير المسلمين :

واستأنف سماحته عقد مثل هذه الاجتماعات في مختلف ولايات الهند بعد فترة عكف فيها على التأليف والبحث العلمي في عام ١٩٧٤م عندما تجددت الصراعات الطبقية ، والإقليمية في البلاد ، وتصعد حب المال ، وكسب المصالح الذاتية ، والاتجاه إلى العنف ، وكان للاجتماع الذي عقد في "جندي كراه" بـ "بنجاب" أكبر الأثر ، ولقي تجاوبا كبيرا من غير المسلمين ، كذلك كان الاجتماع في "جمشيد فور" التي شهدت اضطرابات دامية مثيرة ، وقد اشترك في هذا الاجتماع عدد من كبار قادة الأديان الأخرى والمسئولين ،

وأعربوا عن تقديرهم لدعوة سماحة الشيخ الندوي ، و وعدوا بالتعاون في نشر هذه الدعوة ، ولنشر هذه الرسالة الإنسانية وتعميم نشاطاتها تقرر تأليف منظمة باسم "حركة رسالة الإنسانية" في عام ١٩٧٤م ، وأنشئ مكتب له لإيجاد روابط مع رجال مختلف الفرق وإيجاد منبر للتحاور بينها .

فكرة الشيخ الندوي عن رسالة الإنسانية :

وتتلخص دعوة سماحة الشيخ الندوي وفكرته عن رسالة الإنسانية في كلمته الآتية :

"إن العالم الإنساني يحتاج فيما يحتاج إليه أن توضع أمام الإنسان ، بالارتفاع عن المصالح الذاتية ، والعصبيات القومية ، والمصالح السياسية ، تلك الحقائق والقيم التي تلزم لنجاته وحياته بأمن وسلام ، وهي حقائق إذا أغفلت تعرضت حضارتنا ومجتمعنا لأخطار جسيمة ، و واجهت صراعاً عنيفاً للبقاء ، وقد بين هذه الحقائق الأنبياء في عصورهم ، وجاهدوا في سبيلها ، ولا تزال هذه الحقائق تحمل حيويتها وتأثيرها ونفعيتها للإنسان ، وتقدر على أن توصل الإنسان اليوم إلى النجاة ، لكن الحركات السياسة والمنظمات المادية ، والنزعات القومية أثارت الغبار الكثيف ، واجتاحت عاصفتها ، فاختفت هذه التصورات الإنسانية عن الأنظار .

إن ضمير الإنسان لم يمت رغم هذه العواصف الهوجاء ، ولم يجمد ذهن الإنسان ، ولم يتعطل عن العمل ، فإذا عرضت الدعوة إلى هذه الحقائق بإخلاص ، وبأسلوب سهل مستساغ يفهمه الإنسان اليوم ، فإن ضمير الإنسان وذهنه سيتجاوبان لهذه الدعوة ، ويقبلان عليها ، ويعرف الإنسان أن هذه الدعوة بلسم لجروحه ، وتعبير عن هواجسه" .

وفي عام ١٩٨٣م قام سماحة الشيخ الندوي برحلات متتابعة ، وتحدث في اجتماعات ضخمة في مختلف مدن ولاية الهند الشمالية أترابراديش ك "رامفور" ، "ميرت" ، "مرادآباد" ، هابُر" ، "مظفر نغر" ومدن أخرى ، وتحدث في هذه الاجتماعات عدد من القادة من السيخ ، والهندوس والجينيين ، وزعماء الطبقات المضطهدة ، والعاملون في الخدمات الاجتماعية ، وأعربوا عن تقديرهم لهذه الرسالة الإنسانية .

الحوار لإزالة سوء التفاهم :

شعر سماحة الشيخ الندوي بضرورة التحاور بين أعضاء مختلف الطبقات لإزالة سوء التفاهم الذي يؤدي أحياناً إلى الصراع ، ودعوتهم إلى بذل جهد مركز لإصلاح المجتمع ، فعقدت لهذا الغرض عدة حوارات في "ناغفور" ، و "دلهي" ، و "بونا" وفي جميع هذه الاجتماعات اشترك أتباع مختلف الديانات

والطوائف لدراسة الأسس المشتركة للسلوك باحترام متبادل ، وإشاعة روح التسامح في السلوك .

و وجه سماحة الشيخ الندوي الدعوة إلى إيجاد جو الأمن ، والسلام في البلاد ، وإعادة الثقة إلى النفوس لمحاربة الخوف والذعر ، والشكوك والشبهات بين مختلف الطبقات والمجتمعات ، وأكد على أن هذا الهدف يتطابق مع دستور الهند الديمقراطي الذي وضعه واضعوه بدراسة المجتمع الهندي وطبيعته .

وهي دعوة لا يتنازع فيها أحد لأنها دعوة إلى كرامة الإنسان وصيانة حقوقه ، وإتاحة فرصة للعيش بطمأنينة ، وكان من مثل هذه الاجتماعات اجتماع "حيدرآباد" ، الذي عقد في ٢٩/ديسمبر ١٩٨٩م .

لكل إنسان داران :

صرح سماحته في كلمته التي ألقاها في "حيدرآباد" أن لكل إنسان في هذه الحياة دارين ، دار يسكنها هو وأعضاء أسرته ، ويحرص كل إنسان على أن تكون هذه الدار التي يسكنها مأمونة ، وأن يعيش فيها بسلام ، ويحرص على إيجاد جو المودة ، والأخوة ، والهدوء ، والأمن ، والثقة بين القاطنين فيها ، وهي داره الصغيرة ومأواه ، وهدوء هذه الدار ، وأمنها ، حاجة كل من يسكنها .

وهناك دار أخرى أيضاً وهي أكبر من هذه الدار ، وهي البلاد ، ونحن ننسى في غالب الأحوال أن هاتين الدارين لنا ، إحداهما صغيرة مهما كانت رحبة ، وقائمة على مساحة كبيرة ، فإنها صغيرة بالنسبة للبلاد التي تعيش فيها أسر كثيرة لا تعد ولا تحصى ، ويعيش فيها المواطنون الذين يشكلون أسراً كثيراً كل أسرة منها كأسرتنا ، وترتبط مصلحة كل دار صغيرة بمصلحة الدار الكبيرة ، فإذا كانت الدار الكبرى هادئة يعيش فيها المواطنون مطمئنين، ويسودها الأمن والسلام ، والثقة المتبادلة ، ويرعى سكانها حقوق إخوانهم الآخرين ، ويحرصون على سلامتهم ، فإن هذه الدار تعتبر سعيدة والحياة فيها حلوة ، وهي مأمونة ، مصونة من كل خطر .

هذه الحقيقة لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح ، ولكن تغيب هذه الحقيقة عن أذهاننا أحياناً ، فيتغلب التفكير الذاتي على التفكير الاجتماعي، ويحسب الناس أن دورهم الصغرى التي لا تساوي بالنسبة للدار الكبرى إلا جزءاً صغيراً ، وهي كالأكواخ الصغيرة أو العشش ، مهما كبرت ، إنها عالمهم ، فيركزون جهودهم على تجميلها ، وتأمين سلامتها ، ويربطون مصلحتهم وحظهم كله بأسرتهم في هذه الدار الصغيرة ، ويعرضون عن الدار الكبرى ، المجتمع الأكبر ، ويغضون بصرهم عنها ، وينسى هؤلآء الناس أن العواصف الهوجاء إذا هبت خارج الدار الصغرى ، أو إذا شب حريق واشتعلت نيران ، وانتشرت لفحاتها ، أو إذا

تعرضت المنطقة التي تقع فيها الدار الصغيرة للفيضان الجارف ، فإن هذه الدار الصغرى مهما كانت مشيدة بالحجر أو القرميد لن تبقى مأمونة من النار ، أو السيل ، أو الرياح العاصفة ، ومهما روعيت في بنائها دقة البناء وروعة الفن ، ومهما استعملت فيها أسلاك الحديد ، وأطيلت جدرانها ، فإن هذه الدار تصبح عرضة للدمار ، ولا تستطيع أن تقف في مكانها بنجوة من الخطر .

كذلك إذا كان سكان هذه الدار الصغيرة يعيشون بأمن وسلام وثقة واحترام فيما بينهم ، فإن نار الكراهية والحقد ، والصراع ، وسوء التفاهم والعداوة التي تجتاح خارج الدار في المنطقة ، التي تقع فيها الدار ستؤثر على هدوء هذه الدار الصغيرة ، لأن الأوبئة التي تنتشر في أي منطقة وتلوث الغذاء والماء ، تؤثر على كل دار في المنطقة ، وتجعل حياة السكان في داخل الدار الصغيرة في خطر ، لأن الرياح تحمل السموم ، وتؤثر على جو كل دار .

فساد مجتمع لا يقتصر على أفراده فحسب :

إن فساد أي مجتمع ، وغض البصر عن مبادئ الأخلاق ، والشره ، وحب المال ، والظلم ، والاستغلال لا يقتصر تأثيره على أفراد يرتكبونه ، وإنما يتعدى المجتمع بكامله ، وكل مجتمع يغض بصره عن هؤلآء الأفراد الذين يرتكبون هذه الجرائم يتعرض لأخطار هذه الجرائم .

إننا ندرس في التاريخ حضارات وثقافات ازدهرت طويلاً ، ثم سقطت ، واندثرت عندما عم فيها الفوضى الخلقي ، وغلب الشره ، وحب المال ، وأهينت كرامة الإنسان ، وانصرف الناس إلى إشباع النفس ، وتحقيق المصالح الذاتية ، وهجروا تعاليم الأديان ، والقيم الخلقية ، وبدأ الناس يسخرون منها .

كانت روما تحترق في الوقت الذي كان الفلاسفة ، والأدباء ، والشعراء ، عاكفين على البحث ، والتحقيق والإنتاج ، ويسحرون مجتمعهم بأعمالهم ، ولكن الجسم كان فاسداً ، وكان الفساد قد عمّ الأسواق ، والشوارع ، وكانت العائلات الصغيرة والكبيرة تعاني من الفساد ، وكان الصراع قائماً بين الطبقات ، وكان الإنسان عرضة للفساد ، والظلم ، فلما هبت عاصفة الفساد لم تنج الإمبراطورية الرومية التي فاقت في فتوحها ، وعمرانها ، وحضارتها ، ومستوى معيشة مواطنيها ، وكان يضرب بها المثل ، لم تنج من تأثير هذا الفساد ، وكانت صورة حية لما وصف القرآن الكريم :

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ❖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ❖ لَمْ تُسْكَنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ❖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) {القصص/٥٨} .

وباء العصر :

وأضاف سماحته : إننا في الهند نعيش معرضين عن هذه الحقيقة ، فلا

نفكر إلا في مصلحتنا الذاتية ، وفي مصلحة أنفسنا ، ودارنا ، وأسرتنا ، إن وباء العصر الكبير يكمن في ضخامة المصلحة الذاتية لكل فرد وهو ما وصفه المصلحون الربانيون بتعبير ، "نفسي نفسي" فتفاقمت الأنانيات ، وتجاوزت جميع الاعتبارات الخلقية والمصالح القومية ، والوطنية ، ويجتاح تيار المصلحة فلا يشغل أحداً فكر إلا فكر موارده ، والزيادة فيها ، باي طريق من الطرق .

إن نجاح أي شخص في مجهوده لتحسين داره ، وتحويلها إلى حديقة غناء ، وجعلها بيئة مثالية ، لا يغنيه شيئاً إذا بقيت البيئة التي تحيط بها مويوءة ، فإن الجزر لا تكون إلا في البحر ، وتبقى هذه الجزر قروناً ، ولكن لا تقع الجزر في البر ، وليس لها وجود ، وقد جعلنا دورنا جزرا برية ، وجعلنا أسرنا ، وقبائلنا ، جزراً برية ، وإن هذه الجزر لا تستطيع أن تبقى .

إن الحياة سلسلة متصلة الحلقات ، ويرتبط حظ كل فرد بالآخر ، وكل شخص منا سائل في وقت واحد ، ومحتاج ومطلوب في وقت واحد ، وقد وصفت الفلسفة الشرقية القديمة الإنسان بأنه مدني الطبع ، وهو محتاج إلى حياة معاشرة مدنية ، يرتبط كل فرد بغيره ، يسر بسروره ، ويحزن بحزنه .

إن أكبر حاجة في هذا العصر ، وهي خلاصة حركة رسالة الإنسانية أن نفكر في دارنا الكبرى ولا نقع في خداع أننا آمنون ، ونعيش حياة هدوء وسلامة ، وحياة المبادئ والأخلاق ، إننا نحتاج إلى أن ننظر إلى ما يقع خارج دارنا .

شيوع الفساد :

وأعرب سماحته في النهاية عن أسفه ، بأن الهند ، بلد عظيم ، مترامي الأطراف ، بلد الحضارات ، والديانات ، والفلاسفة ، والمفكرين ، والساسة ، والمدبرين ، ولكن لا ينهض رجل واحد ، اليوم من المثقفين ، والأدباء ، والحكماء ، والقادة ، ورجال الخدمات الاجتماعية ، وعددهم كبير ، بهذا الفكر لبناء خلق الإنسان ، فلا يهم أحداً أين تتجه هذه البلاد ؟ وقد بلغ السيل الزبى ، وهل يتصور فساد أكبر من تلويث الأدوية التي تستعمل لوقاية الحياة ، وقد سمعت أحد وزراء الصحة يقول : إن ستين في المائة من الأدوية ممزوجة ، كذلك المحسوبية ، والرشوة ، والتسيب ، واللامبالاة ، والابتزاز والأمراض الاجتماعية عمت في هذه البلاد ، ولا تخلو منها المستشفيات ، ودور الصحة ، والتعليم ، والمؤسسات الإنسانية ، فكيف تسير هذه البلاد ، وكيف تجري الحياة فيها بسلام ؟

مسئولية المسلمين :

وذكر سماحة الشيخ الندوي مسئولية المسلمين وأعرب عن أسفه بأن المسلمين كانوا مقصرين في هذا المجال ، بإعراضهم عن تأدية واجبهم إزاء بناء الإنسان ، وتقديم

أسوة خلقية ، وقد قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : "الراحمون ، يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" .

واختتم كلمته بقوله : "إننا مسئولون عند الله ، يوم القيامة عن هذا التقصير ، فتعود إلى المسلمين مسئولية إنقاذ البلاد ، لأن هذه السفينة إذا غرقت غرق بها المسلمون وغير المسلمين ، ولكني رغم ذلك متفائل ، ولا أقنط من رحمة الله ، فإن البلاد نامت ، ولكن لم تمت ، والنائم يوقظ ، وأما الميت فلا أمل في حياته وانتعاشه ، ولكن يجب أن تكون للنوم نهاية وأن تتلوه صحوة ، فحاجتنا الماسة اليوم إيقاظ هذا المجتمع ، ولذلك أبذل سعيي المتواضع لإيقاظ ضمير الإنسان" .

تأثير الحركة :

كان الوضع في بعض المناطق متوتراً ومتأزماً ، وخاصة بعد الاضطرابات الطائفية ، وتصعدت حركة الاستيلاء على ما يسمى بمسقط رأس (راما) في "أيودهيا" ، وعمت المسيرات الطائفية ، واستغلت الأحزاب السياسية النزعات الطائفية في الانتخابات ، فعقدت اجتماعات مشتركة تحت هذه الحركة ، فتآلفت القلوب وتقدم عدد من كبار العقلاء والمثقفين من الهندوس ، وهدأت العواطف في الأماكن التي عقدت فيها هذه الاجتماعات ، وأمكن تجنب الصراع، وقد كانت الحركة تقتضي نفوساً تتفرغ لهذه الحركة من كلتا الطائفتين ، ولكن لم تتهيأ هذه الوسائل البشرية ، ولا المادية ، فلا تزال الحركة محدودة ، وكان من مساعدي سماحة الشيخ في هذا العمل الأستاذ إسحاق جليس الندوي الذي كان يفهم عدة لغات هندية ، وكانت له سليقة للإقناع والتفهيم وفهم ذهن غير المسلمين ، ولكنه توفي إلى رحمة الله في عام ١٩٧٩م ، والحركة في بدايتها ، وانضم إلى الحركة الأستاذ عبد الكريم باريكه ، وله دور ملموس في تطويرها ويحمل تجربة للعمل في أوساط غير المسلمين .

وكان من المساعدين في الحركة الأستاذ قاضي عبد الحميد ، والأستاذ أنيس الجشتي ، والدكتور محمد اشتياق حسين قريشي ، ونالت هذه الحركة إعجاب عدد من غير المسلمين المثقفين ، وكان منهم بشيشبرناتھ باندي حاكم ولاية "أوريسا" سابقاً ، وقد صدرت له تآليف في تصحيح التاريخ ، وأنكر فيها بعض الأساطير والقصص الشائعة التي تبث الحقد والكراهية للمسلمين ، ويقدم تاريخهم بدون العصبية الطائفية ، كما تأثر بالحركة عدد من الصحفيين الكبار وعرضوا فكرتهم في الصحف الهندية .

أثر الحديث النبوي في اللغة والأدب

(الحلقة الأول)

بقلم : الأخ محمد محامد حسين الندوي
الباحث للدكتوراه بجامعة جواهرلال نهرو ، دلهي الجديدة

الحمد لله على نعمة الإسلام على نهج النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام .

لقد آمن المسلمون – بدلائل حسية وعقلية – بأن ما نطق وتكلم به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو إلهام إلهي وبيان لمراد الله عزوجل ، سواء أكان هو وعظاً وإرشاداً للناس أم تفسيراً وشرحاً للقرآن الكريم أم تشريعاً وتفصيلاً لأحكام الإسلام ، لأنه صلى الله عليه وسلم ما قال قولاً عن هوى وغرض ، وما تكلم كلاماً إلا بما شاء الله تبارك وتعالى ، فقد شهد بذلك ربنا الكريم بقوله : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ❖ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ❖ عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوَى) {النجم/٥/٣} ، فلذلك نرى أن الصحابة ومن بعدهم كانوا يأتمون به كما يأتمون بالقرآن الكريم فتلقوا منه تلقيا جادا حيث بلغوا من أحد إلى آخر ورووا عن بعضهم البعض ، واهتموا بما فيها من علم وعمل مشتاقين ومحتسبين ، فلا غرو أن تجدوا في التاريخ الإسلامي العلمي أن هذه الأحاديث النبوية منذ أول يومها إلى أيامنا هذه قد حظيت بعناية العلماء والأدباء والباحثين حظوة وافرة تفوق التقدير ، حتى يمكن القول : لم يلق كلام أحد من البشر بقدر ما لقيه كلام النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من العناية حفظاً وتناولاً ورواية ودراية ، وما زالت هذه العناية تترى ، وستبقى بإذن الله حتى يرث الأرض ومن عليها ، ولا عجب في ذلك لأنها هي من أهم أسس حياة الأمة المحمدية وأعظم مراجع عظمتها وأكبر أسرار خلودها وأضوأ منائرها التي تستضيئ بها لاهتدائها في شئون حياتها وأمور معاشرتها ، فقد جعلها الله تعالى مصدراً ثانياً للتشريع الإسلامي ومتمماً ومكملاً للقرآن الكريم في بيان أحكام الشريعة ، خاصة حين تجملت آيات القرآن أو جاءت مبهمة أو تحمل وجوهاً مختلفة من المعاني أو يتشابه المراد من معنى بعض آياته (١) حيث قال الله عزوجل : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) {النحل/٤٤} فلعل بذلك ، تعتبر العناية بالأحاديث النبوية والاشتغال بها ضرباً من عبادة دينية يتقرب بها الدارسون والمشتغلون إلى الله ورسوله (٢) فمن أبرز ثمار هذه العناية ، تلك المؤلفات العظيمة – على أساسها في مجالات شتى – التي تستفيد منها الأمة لنيل بغيتها الدنيوية والأخروية معاً .

هذا ؛ وقد ترك هذا التعامل الدائم من خلال أساليب دعوة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وبيانه وتكلمه ومن طراز حياته ومعاشرته ومن طرق إصلاحه وتربيته أثرا عميقا في سلوكهم ومعاشرتهم وعقولهم وعواطفهم .. وكيف لا يكون ! فقد أيده الله سبحانه وتعالى بالقرآن البليغ المعجز وشيده بجواهر الحكم وقدرات الفكر ، ودعمه بمعجزات أخرى من بلاغة اللسان وقوة البيان والتمكن من شتى اللهجات القبلية العربية ، حتى قال له صاحبه أبوبكر الصديق رضي الله عنه الذي ينتهي إليه علم أخبار العرب وآثارها وأنسابها ولغاتها ...(٣) : "لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك (علمك) ؟" فقال : أدبني ربي فأحسن تأديبي" (٤) وشاء الله أن يولد في قريش وهي الذروة في الفصاحة وأن يرضع في بني سعد وهم من أفصح القبائل ، ولذلك روي عنه صلى الله عليه وسلم حيث إنه قال متحدثا بنعمة الله وفضله : "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر" و "قد أعطيت جوامع الكلم" (٥) وقد أمر بإظهار ذلك من عند ربه بقوله: (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) {سورة ص/٨٦} ونحن نرى أن الرواة ونقاد العربية يروون متواترة بلا جدل واختلاف أنه صلى الله عليه وسلم بصفته التي خصه الله بها كان أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا وأعذبهم نطقا وأبينهم لهجة وأعرفهم بمواقع الخطاب وأهداهم إلى طريق الصواب ، فكان صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قبيلة بلهجاتهم فيبرهم فيها ، كما كان يخاطب قومه ويأتي بما لم يعهدوه في لغتهم ولم يأثروه عن بلغائهم ولم يسبقه إليه عربي ولم يشاركه فيه عجمي ، ولم يدع لأحد وما ادعاه أحد مما صار مستعملا ومثلا سائرا بين الناس (٦) .

وعادة يشير المؤرخون إلى أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم برسالته ودعوته وبنموذج شخصيته وفكره وحكمته كان نقطة تحول كريم ومظهر انقلاب جليل في تاريخ البشرية الجمعاء ، ولكنني أريد أن أقول متأكدا بلا تردد وتشكك بأن أثر دعوته المتينة وشخصيته الفذة صلى الله عليه وسلم لا يقف عند توحيد الله ، وإصلاح الأخلاق والمجتمع ، وإقامة شعائر الدين فحسب، بل يمتد هذا الأثر إلى إصلاح اللغة واللسان وتقويم الكلام والبيان على الوجه السديد ، والسمت الحسن ... يتجلى ذلك بالوضوح في أقواله وأعماله معا ، فالدارس لنصوص الحديث الشريف يستطيع أن يضع يده على كثير منها جاء في الحض على تسديد القول وصدق الكلام وإجادة الأسلوب وحسن المطلب والمقصد ، وفي الذم في اختيار الإغراب والتكلف والتصنع في الكلام وفي الإتيان فيه مالا يعنيه ، منها فيما يقول صلى الله عليه وسلم : "رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، وسكت عن سوء فسلم" (٧) و "الكلمة الطيبة صدقة" و "إياي والتشادق" و "إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ،

وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون" (٨) ، ورواه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هلك المتنطعون" قالها ثلاثا (٩) ، والمتنطعون : هم المتعمقون الغالون في خوضهم فيما لا يعنيهم من الكلام ، وأما ردود القول ثلاثا فهو تهويلا وتنبيها على ما فيه من النقص والذم ، وتحريضا على التيقظ والتبصر فيما دونه ، وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل ، يحفظه من جلس إليه" (١٠) ، وفي رواية أخرى قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه" (١١) وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يكره الإطالة في الكلام بما يجاوز مقدار القصد به ، وقد تكلم رجل عنده فأطال فقال له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : "كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاي وأسناني ، فقال له : إن الله يكره الانبعاق في الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته" (١٢) ، وربما كان يلفت نظر القوم إلى التدقيق الصحيح في اختيار الألفاظ وصياغة العبارة ، ويدل على ذلك الحديث المروي عنه : "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي" (١٣) وقال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر : "إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها" (١٤) ، ومن الملاحظة أن سائر الدواب تتناول من نبات الأرض بأسنانها ، وأما البقرة فهي تتناوله بلسانها ، فضرب بها المثل ليبين أنهم في مغزاهم ذلك كالبقرة التي لا يستيطع أن تميز في رعيها بين الرطب والشوكة ، وبين الحلو والمر ، بل تلف الكل بلسانها لفا ، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون ألسنتهم ذريعة إلى مأكلهم لا يميزون بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، فكأنهم هم الذين اصطلح عنهم القرآن بقوله : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) {المائدة/٤٢} ، فهذه الأحاديث وغيرها تذم التكلف والتصنع في الكلام بالتقعير والتشديق ، وتلوم المبالغة واللباقة في البيان بالإفراط والتفريط لإظهار الفصاحة وقوة اللسان ، وتبين أن التكلف والتعالي على الناس بتفخيم الكلام وحدة اللسان هو مما يبغضه الله تبارك وتعالى ، وقد ورد التمثيل بالبقرة من الدواب على سبيل الذم والاستنكار لهذا الفعل .

هذه تعليمات نبوية تجاه الأمة قوليا لتعرف الكلام الجيد من الردئ ولتعلم البيان الجميل المحمود من المبغوض والمكروه ، وأما التوجيهات التي تركها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعملية نفسه الذكية فهي أحسن قدوة وأجدر أسوة لأمته ولغيرها التي تريد الاستفادة أو الاستفاضة ، وقد اهتم العلماء قديما وحديثا بدراسة ما تركه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من تراث

كلامه وبيانه والوقوف على خصائصه ، وبيان ما اشتمل عليه من ألوان البلاغة وجمال الأسلوب ، ويكفي لنا في هذا الصدد ما قاله العلامة المحدث الكبير ابن القيم وأديب العربية الشهير أبو عثمان عمرو بن البحر الجاحظ ، فيقول ابن القيم متحدثا عن أسلوب كلامه صلى الله عليه وسلم واختيار الألفاظ في بيانه : "كان يتخير في خطابته ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش ، فلم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا ولا فظا ، وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك ، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله" (١٥) ويقول الجاحظ – وهو الناقد البصير بدقائق الكلام – حيث سرد أولا عن أساليب البيان لدى العرب ، وساق نماذج وشواهد لها ، ثم أشار إلى أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قد فاق غيره في كلامه ومما وصفه من كلامه صلى الله عليه وسلم هو : "أنه لا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج (١٦) إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم" (١٧) .

فإذا ما عرفنا من قصة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في نشأته اللغوية ومن رتبته فيها ، وعلمنا مما يتعلق به من أمر النبوة والرسالة وما لكلامه من سمات بارزة وميزات مرموقة تتأكد لدينا أنه لابد من أثرها البالغ في اللغة والأدب ، وذلك طبيعي ما دامت اللغة والأدب تعبيرا عن الحياة وتسجيلا لوقائعها وأحداثها وتفسيرا لاتجاهاتها ، فعندما نلقي النظر على الكلام النبوي أو الأحاديث النبوية نظرة عميقة نجد أن لها آثارا بعيدة في اللغة العربية وآدابها ، نجد أنها قد حولت أدبها من قصائد في الغزل الماجن والعصبية القبلية والعُنجُهيّة الجاهلية ، والأخذ بالثأر ، و وصف الإبل والخيل والسيوف والرماح ، ومدح الأوثان والأصنام ، ومن لغز الكهانة وفروعها (١٨) المعقدة التي لا ضابط لها ولا نظام ، إلى أدب إنساني عالمي يعالج مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية معا ، وينظم أمورها الدينية والدنيوية جنبا إلى جنب ، فارتقى الأدب العربي رقيا لم يكن يحلم به العرب واتسعت آفاقه إلى جميع العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس ، إذ هي المنبع الثر والمصدر الثاني بعد القرآن ، ولعلي لا أبالغ إذا قلت : إن بقاء اللغة العربية الفصحى حية إلى يومنا هذا مدين كليا دون شك للسان (للحديث) الذي نطق به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، إذ لولاه لما أنزل القرآن الكريم في هذه اللغة العربية التي نحن نراه فيها ، ولبادت هذه اللغة كما بادت اللغات الأثرية القديمة .

فالحديث النبوي أو اللسان النبوي في الحقيقة هو الذي أتاح للقرآن أن يكون في شكل هذه اللغة العربية ، وأن يكون في هذا النوع الأدبي الذي نحن نشاهده ، وهو الذي نفخ في اللغة العربية بمعاونة القرآن الروح الخالدة ، وضمن لها البقاء والخلود وهو الذي عمل مستمدا به على تقريب ما بين اللهجات العربية المختلفة من فروق وعلى استكمال السيادة للهجة القرشية الفصحى ، وهو الذي لعب دورا هاما كعامل رئيسيّ ثان في نقلها من لغة بداوة إلى لغة مدنية عالمية ، وهو الذي هذب اللغة من الحوشية والهجين السوقي ، وأبعدها عن الغرابة والخشونة ، وجمع بين غزارة المعنى وإحكامه ورصانة اللفظ وفصاحته ، وبراعة التركيب وجماله ، وتوسع نطاقها أكثر من ذي قبل ، واستمر لها ذلك حتى وصلت إلى ما وصلت ، يكفي أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد بن ربيعة وديوان الإمام الشافعي ... أو إلى أشعار قبيلة مثل أوس وخزرج وهذيل ... ودواوينها المطبوعة ، أو إلى خطبة من خطب الخلفاء والمصلحين والأمراء المهتدين ، لترى كيف أنهم حقا اختطوا أسلوبا جزلا ، له رونق وطلاوة وروح وحلاوة مع وضوح القصد والاستيفاء والوصول إلى الغرض بأقرب مسالكه ، وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا حشو ، ولا إحالة ولا اضطراب ، تجد فيه الألفاظ والجمل على قدر المعنى ، كأنما رسمت ترسيما وركبت تركيبا على وجه ما تقتضيه طبيعة المعنى من الألفاظ وما تستوجبه الألفاظ من المعنى ، فمتى يستمعها السامع أو يستوعبها القارئ يتمثل له المعنى في ذهنه ويقع في قلبه وحسه ، حتى يتشوق إليه للمزيد ، فهذا هو الأسلوب الذي يعد من المميزات للغة العربية ، وهذه هي ميزاتها الخاصة التي استطاعت بها أن تفتح قلوب عامة الناس حين توسع نطاق دعوة الإسلام إلى الأمصار فإذا أهلها معجبون بها ، وإذا هم يهجرون لغاتهم ولهجاتهم المختلفة إلى هذه اللغة الصافية الشفافة ، فاتخذوها لسان ثقافتهم وآدابهم وإداراتهم ، ومما لا شك فيه أن الحديث النبوي البليغ هو الذي أجاد و وسّع هذا الأسلوب السهل الممتنع – مستمدا بالقرآن الرائع المعجز- الذي حملهم على ما فعلوه ، لاحظ كلامه من خطبه وبيانه وأدعيته ورسائله ... أو من أي صنف من أصناف كلامه التي تختارها ، فإنك ستجد فيه أسلوبا متسقا جاريا في مجرى واحد مع جودة الإفهام وروعته ومع سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف والتصنع ، موجزا في موضع الإيجاز ، ومسهبا في موضع الإسهاب ، وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم :

"إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها ، وقال : إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال" ، وقال : "بادروا بالأعمال سبعا ، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى

مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر" (١٩) ، وإلى كلمات دعائه في عرفات : "اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شئ من أمري ، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسئلك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسمه ، و رغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً ، و كن لي رؤوفا رحيماً ، يا خير المسئولين ويا خير المعطين" (٢٠) .

فلن تجد هنا ولا هناك كلمة صعبة ولا لفظا غريبا ولا تركيبا ركيكا ، إنما تجد دائما فصاحة اللهجة وبلاغة الحجة وبراعة الأسلوب وجزالته وعذوبته مع دقة العبارة وترابطها وإيجازها ، وسائغ اللفظ وسهل المأخذ، لا تحتاج إلى تعمق في الفهم أو طول تدبر ، وهو أسلوب يلذ الآذان حين تسمع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغي إليه ، وإلى ذلك يشير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : "ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله ، محكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ، حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم ، إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع ويشتد فينزو بالدماء ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء" (٢١) .

فتولد تحت ظلال مثل هذه الأحاديث النبوية الغضة البليغة من الإنشاء والأدب من أبلغ ما كان وأحسن ما ظهر فيما بعد تحت أفياء غيرها ، فمنذ ظهورها تكونت عمود الآداب شعرا ونثرا للأغراض الإنسانية النبيلة التي تكفل لعامة الناس الكمال البشري والسعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربي ولا عجمي ، وتعددت هذه الآثار أيضا إلى ثقافات ولغات الأمم الإسلامية التي لا تنطق بلغة غير هذه العربية ، فترون الكتاب والشعراء والخطباء فيما بعد صائغين كلامهم وإنتاجاتهم الأدبية على هديها ونهجها وبديباجتها وأسلوبها ... فكان العلماء والباحثون – ولا يزالون – يتحفظونها ، فهي معجمهم اللغوي ومرجعهم الأدبي الذي يقتبسون منه ويراجعون إليه حسب احتياجهم وافتقارهم ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم

وأعصارهم، فإذا ما طالعتم كتبهم ومعاجمهم هالكم ذلك الكم الهائل من المقتبسات والمستشهدات بالأحاديث النبوية التي دارت عليها مواد معاجمهم ، رأيتموهم أنهم جاءوا بكلمة ثم كشفوا عن أصلها في الاستعمال اللغوي واستقروا مدلولاتها ومعانيها ، فاستحضروا الشواهد من الحديث النبوي لاكتناه سرها وجوهرها ، فهذا لا يدل إلا على شئ واحد ، وهو تأثرهم تأثرا عميقا بالأحاديث النبوية ، ورغبتهم الصادقة في الحفاظ على لغة السنة النبوية ، استمع إلى العلامة ابن منظور صاحب المعجم الذي هو أكبر معاجم العربية ، وهو يقول: "فإني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية" (٢٢) .

أما تأثير الأحاديث النبوية في نفس اللغة العربية فضلاً عن أدبها فظاهر فيما عاونت على نشرها وحفظها وتوسيع نطاقها بالإدخال فيها من الألفاظ الإسلامية – مما اقتضاه الإصلاح الديني أو الشرعي أو الاجتماعي – ومن اللهجات القبلية المختلفة التي كان يخاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبائل والوفود المتباينة في لهجاتهم وصيغ كلامهم ، وفيما أمدها بمعان جديدة وبمصطلحات كثيرة وعبارات حكيمة قيمة ، مما لم تكن تعرفها هذه العربية ولا كانت تعرف العبارة عنها قبل ، وكلها أو جلها قد صار مثلا وأصبح ميراثا خالداً في اللغة والأدب ، وعادة يشير مؤرخو هذا الأدب إلى بعضها التي ابتدأها صلى الله عليه وسلم ابتداءً لم يسبق إليها أحد ، مثل قوله في الأوضاع والأمثال : "الآن حمي الوطيس" (٢٣) ، و "هدنة على دَخَن" (٢٤) ، و "مات حتف أنفه" (٢٥) ، و "إياكم وخضراء الدمن" (٢٦) ، و "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" (٢٧) ... وفي الأوضاع المفردة : "المخيلة" و "السكين" وغيرها مما لا يحصيه العد من كلامه – صلى الله عليه وسلم – الذي زخرت به كتب اللغة والأدب .

فمدلولات هذه المفردات والتراكيب وغيرها التي تدور حول موضوع الدين الحنيف وتفسيره لم تكن حتى كان ، والحق أنها جميعها بألفاظها ومعانيها المختلفة تعد ابتداءً بما علم صلى الله عليه وسلم العرب من أسس الإسلام ومبادئه وبما بين لهم من عبادة الله الواحد الأحد ، ومن ماهية الحياة بعد الموت ، ومن البعث والنشور ، ومن تاريخ الأمم والأنبياء ، وبما وجه إليهم من عبر وعظات ، وبما نظم لهم من حياتهم في أسرهم ومجتمعهم تنظيما ماديا وأدبيا وعقليا وروحيا ، وما كان ذلك مستحيلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله تبارك وتعالى قد أودع في فطرته أقصى النهاية من صفاء الحس وثقوب الذهن ونفوذ البصيرة وقوة الوضع والتشقيق من اللغة وتصاريف الكلام إلى حد الكفاية ، وإلى ذلك يشير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي قائلا : "كان صلى الله عليه وسلم على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق

من الألفاظ ، وانتزاع المذاهب البيانية ، حتى اقتضب ألفاظاً كثيرةً لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ... وكثيراً ما كان يسأل أصحابه عن مثل هذا فيوضحه لهم ، ويسددهم إلى موقعه ، واستمر عصره على ذلك ، وهو العصر الذي جمعت فيه اللغة واستفاضت ، وامتنع العرب عن الزيادة فيها بعد أن سمعوا القرآن الكريم وراعتهم أسرار تركيبه ، فلم يكن يومئذ من يتجوز ويقتضب ويشتق ويضع غيره صلى الله عليه وسلم" (٢٨) .

أثره في اللغة العربية :

يمكن أن نقدر أثر الحديث النبوي في اللغة العربية بأمور منها :

= تخصيص معاني بعض الألفاظ كـ العمرة ، والحج ، والصلاة ، والقذف ، والفقه ، وغيرها .

= إعطاء معانٍ جديدةٍ لألفاظ قديمة ، مثلاً : قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : "أتدرون من المفلس ؟ قال الصحابة : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ، فقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وحجّ ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دمَ هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبلَ أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه فطرح في النار .

= تغيير دلالة بعض الألفاظ مثلاً ، قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : "اليد العليا خير من السفلى" فإنه صلى الله عليه وسلم أطلق اليد وقصد بها من يجود بشئٍ من عنده ومن يأخذ شيئاً من غيره ، وقوله صلى الله عليه وسلم : رويدك رفقاً بالقوارير (٢٩) .

= إطلاق الجزء والمراد الكل مثلاً : "ويلٌ للأعقاب من النار" قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هذا الكلام في الذين لا يسبغون الوضوء ويتركون أعقابهم دون غسل فأطلق الجزء وأراد الكل .

= قصد السبب بذكر المسبّب ؛ مثلاً جاء في الحديث الشريف : "إنّ من أكبر الكبائر أن يشتم الرجل والديه ، قيل يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : يسبّ أبا الرجل فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمّ الرجل فيسبّ أمّه" .

= اعتبار ما سيكون : كقوله صلى الله عليه وسلم : "من سرّه أن ينظرَ إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله" (طلحة الآن حيٌّ ولكنه سيكون شهيداً في المستقبل ، وهذا ما سيكون) .

= قصد الحال بذكر المحل ؛ جاء في الحديث : "لا تركب البحر إلا حاجّاً أو معتمراً أو مُجاهداً في سبيل الله" فذكر المحل "البحر" وأراد الحال "السفر في البحر" .

= حفظ النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لبعض اللهجات العربية الشائعة آنذاك ، وهو كثير إذ كان الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم يخاطب بعض وفودهم بلهجاتهم ، وبقي من ذلك كآثار تاريخية ، منها حديثه المشهور الذي أبدل فيه "ال" بـ "أم" لتعليم بعض القبائل ، قال : "ليس من امبرّ امصيام في امسفر" (٣٠) ، ومنها كتابه الذي أرسله إلى وائل بن حجر الكندي ، أحد أقيال حضرموت ، قال فيه صلى الله عليه وسلم : "إلى الأقيال العباهلة ، والأرواح المشابيب ... وفي التيع [illegible]اة لا مقورة الأليط ، ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة ، وفي السيوب الخمس ، ومن زنى مم بكرٍ فاصقعوه مائة ، واستوفضوه عاما ، ومن زنى من ثيبٍ فضربوه بالأضاميم ، ولا توصيمَ في الدين ، ولا غمة في فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ..." (٣١) .

= إضافة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لألفاظ لم تُسمع من أحدٍ غيره ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : والله إن سمعت بـ "السكين" قط إلا يومئذ ، وما كنا نقول إلا "المدية" وكما روي من أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي تميمة الهُجَيمي : إياك والمخيلة ؛ فقال : يا رسول الله ! نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : "سَبلُ الإزار" ومرت الكلمة بعد ذلك على هذا الوضع ، يراد بها الكبر ونحوه (٣٢) ، ومن أمثلة هذا القبيل ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ألا أنبئكم ما العضة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال هي النميمة" (٣٣) .

= إضافة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لعبارات لم تُسمع من أحدٍ سواه ، مثال : "إن المُنبتّ (٣٤) لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" .

= تهذيب الحديث النبوي الشريف للغة العربية بأنه نهانا عن استخدام بعض الألفاظ والأسماء ، وأعطانا ألفاظاً أخرى مثلا : قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : "لا تسمّوا العنب كَرْماً فإن الكرم هو الرجل المسلم" ، ومما يدل على منعه صلى الله عليه وسلم عن التسمية بالأسماء الخاصة بالله سبحانه وتعالى كملك الملوك ... وعن التسمية بكل اسم معبد مضاف إلى غير الله سبحانه وتعالى كعبد العزى ، وعبد الكعبة ، وعبد الدار ، أو عبد فلان ... إلخ ، مثلاً ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه في صحيح البخاري ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخنى الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملك الملوك" (٣٥) ، ولفظه في صحيح مسلم :

"أغيظ رجل عند الله يوم القيامة ، رجل كانَ يسمى ملك الأملاك ، فلا ملك إلا لله" (٣٦) وغيّر اسم رجل اسمه : "أبا الحكم" وقال : الحكم هو الله ، وروي عن ابن يزيد رضي الله عنه قال : "وفد على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قوم ، فسمعهم يسمون : عبد الحجر ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : عبد الحجر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت عبد الله" (٣٧) .

---

(١) فالقرآن مثلاً لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام بل اكتفى بمثل قوله تعالى : (أقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ) ففصلت الأحاديث النبوية أوقات الصلاة وكيفياتها ، كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها وهذان أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أقوال الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم .

(٢) فقد قال الله تبارك وتعالى : (مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ❖ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) {الحشر/٧} وروي عن ابن عباس رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهم ارحم خلفائي ، قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس ، وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي وأخبروا بها من وراءكم من العشائر ... (لاحظ هذا الحديث في مقدمة القسطلاني : نقلاً عن تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي – للدكتور شوقي ضيف : ص/٣٥- ٣٦)

(٣) يقول عنه مصطفى صادق الرافعي : "فإنه رضي الله عنه في علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها الغاية التي ينتهي إليها ويوقف عندها ، حتى لا يعدل به عدل ، وحسبك أن أنسب العرب في صدر الإسلام ، وهو جبير بن مطعم ، إنما عنه أخذ ومنه تعلم ، وإذا قالوا في المبالغة : أنسب من أبي بكر ، فقد قالوا : أنسب الناس !" (تاريخ آداب العرب : ج/٢، ص/٣٠١) .

(٤) الجامع الصغير في أحاديث البشير والنذير – للسيوطي : ج/١ ، ص/١٤ .

(٥) روي عن عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال : "فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون" أخرجه مسلم برقم الحديث/٥٢٣ .

(٦) لاحظ "البيان والتبيين" للجاحظ : ج/٢ ، ص/١٥- ١٧ ، و "النهاية في غريب الحديث" لابن الأثير : ج/١ ، ص/٢٢ ، و "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي : ج/١ ، ص/٢٧٩- ٢٨٧ .

(٧) "الزهد والرقائق" لعبد الله بن المبارك .

(٨) "سنن الترمذي" باب ما جاء في معالي الأخلاق ، رقم الحديث/٢٠١٨ ، الثرثرة : هي كثرة الكلام وترديده ، والثرثارون : هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً ، والمتشدقون : هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز ، وقيل : أراد بالتشدق المستهزئ بالناس يلوي شدقه لهم وعليهم ، والمتفيهقون" هم الذين يتوسعون في الكلام ويتفتحون به أفواههم ، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع ، ولقد جاء تفسير المتفيهقين في حديث آخر بالمتكبرين ، فلقد روى الترمذي نحوا من هذا الحديث ، ففي روايته قالوا : يا رسول الله ! قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون .

(٩) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود : كتاب العلم – باب هلك المتنطعون ، رقم الحديث/٢٦٧٠ .

(١٠) "الشمائل المحمدية" للإمام الترمذي : رقم الحديث/٢٢٣ (باب كيف كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، السرد : متابعة الكلام على الولاء والاستعجال به ، وقد يراد به أيضا جودة سياق الحديث ، فكأنه من الأضداد .

(١١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة : كتاب الزهد والرقائق – باب التثبت في الحديث ، وحكم كتابة العلم : رقم الحديث/٢٤٩٣ .

(١٢) "باب البلاغة من كتاب العمدة" لابن رشيق ، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : ج/٤ ، ص/١٤٤٩ ، الانبعاق : الاندفاع في الكلام ، وهو مظنة الخطأ ، وقلما سلم صاحبه من زلل ، لأنه أبدا إلى الزيادة عن معانيه وعن حاجته .

(١٣) صحيح البخاري : رقم الحديث/٥٨٢٥ .

(١٤) أخرجه أبو داؤد والترمذي من حديث عبد الله بن عمر : يلاحظ هذا الحديث في سنن أبي داؤد في باب ما جاء في المتشدق في الكلام : رقم الحديث/٥٠٠٥ .

(١٥) "زاد المعاد" : ج/٢ ، ص/٣٥٢ نقلاً عن "آداب المجلس" لفهد البدراني : ص/١٧ .

(١٦) الفلج : الفوز والظفر .

(١٧) البيان والتبيين : ج/٢ ، ص/١٧ .

(١٨) جاء بتحريمها في صحيح مسلم حيث روي عن معاوية بن الحكم السلمي ، قال : قلت يا رسول الله ! أمورا كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان ، قال : "فلاتأتوا الكهان" باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان : رقم الحديث/٥٣٧ .

(١٩) رواه الترمذي .

(٢٠) كنز العمال ، من مرويات ابن عباس رضي الله عنه .

(٢١) "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي : ج/٢ ، ص/٢٧٩ .

(٢٢) مقدمة "لسان العرب" : ص/٨ ، الناشر دار صادر – بيروت .

(٢٣) الوطيس : التنور ومجتمع النيران ، استعارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة الحرب يوم حنين ، فشاع من يوم هذا للتعبير عن اشتداد الحرب .

(٢٤) الهدنة : المصالحة بعد الحرب ، الدَخَن : دخان ، حقد : يضرب مثلاً للمصالحة على فساد باطن تعقبها حرب عنيفة .

(٢٥) يضرب لمن مات على فراشه .

(٢٦) خضراء الدمن هي كناية عن المرأة الحسناء التي تنشأ في منبت سيّئ ، يضرب مثلاً للتنفير منها : والدمن جمع دمنة : المزبلة .

(٢٧) يضرب مثلا للحذر والتوقي من المؤذي .

(٢٨) "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي : ج/٢ ، ص/٣١٥- ٣١٧ .

(٢٩) القوارير : هي الزجاجات ، والمراد بها النساء .

(٣٠) أي ليس من البر الصيام في السفر (تاريخ الأدب العربي الإسلامي – للدكتور شوقي ضيف : ص/٤١)

(٣١) تفسير هذا الكتاب على نسق ألفاظه ، الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك من ملوك حمير وحضرموت ، والعباهلة : المقرون على ملكهم فلم يزالوا عنه ، والأرواع الذين يروعون بالهيبة والجمال، والمشابيب : جمع مشبوب ، وهو الجميل الزاهر اللون ، والتيعة : أربعون شاة ، تطلق على أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان ، ومقورة الألياط : أي المسترخية الجلود ، والضناك : الموثقة الخلق السمينة ، يريد أن شاة الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم ، بل تكون وسطا وهو المراد بقوله : "وانطوا الثبجة" أي أعطوا : بلغتهم ، إذ يبدلون العين نونا ، والثيجة : الوسط ، ومنه ثبج البحر، والسيوب : جمع سيب ، وهو العطية ، والمراد به الركاز ، وهو دفين الجاهلية ، ومم بكر ، ومم ثيب : أي من بكر ، ومن ثيب ، وهي لغتهم في إبدال النون ميما ، والاستيفاض : النقي والتغريب ، والأضاميم : الحجارة الصغار ، والتوصيم : الفترة والتواني (تاريخ آداب العرب – لمصطفى صادق الرافعي : ص/٣١٩) .

(٣٢) المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٣١٧ .

(٣٣) يلاحظ في "لسان العرب" لابن منظور ، و "تهذيب اللغة" للأزهري في مادتها .

(٣٤) المنبت : هو المنقطع عن الجماعة بإسراع ناقته حتى هلكت فلم يقض ما يبغي من حاجة أو من سفر ، والظهر : الناقة التي يركبها ، يقال لمن يبالغ في طلب الشئ ويفرط حتى ربما يفوّته على نفسه .(٣٥) رقم الحديث/٢٦٠٦ .

(٣٦) رقم الحديث/٢١٤٣ .

(٣٧) الموسوعة الفقهية : ج/١١ ، ص/٣٣٥ .

موقف علماء الهند من الاستشراق في عهد الاستعمار

(١)

بقلم : الأستاذ صاحب عالم الأعظمي الندوي

المقدمة :

لقد بدأ الاستشراق في الهند مبكراً خصوصاً في عصر الدولة المغولية ، توجه المستشرقون فيها إلى دراسة المجتمع الإسلامي والهندوسي ، ذلك لمعرفة التاريخ الإسلامي للهند بجانب الاطلاع على العادات والتقاليد الهندية ، وكان الهدف من ذلك هو التمهيد للاستعمار الزاحف في ذلك الوقت ، حتى يمكن للمستعمرين التعامل مع الشعوب المغلوبة فيما بعد ، كما يتسنى للجمعيات النصرانية لنشر الثقافة الغربية والدين النصراني .

ولما تمكنت دولة بريطانيا -أقوى ممثل الحضارة الغربية ، والعلوم والثقافة الغربية ، وأشد تحمسا لها- من بسط سيطرتها السياسية الكاملة على الهند ، بدأت الأخيرة تتأثر بالحضارة والثقافة الغربية عن طريق مباشر على حين كانت بلاد أخرى تتأثر عن طريق غير مباشر بوكالتها الأدبية والثقافية .

ولما كان الشعب الإسلامي الهندي أرهف شعورا دينيا وأرق وعيا إسلاميا ، وأشد غيرة على الإسلام من شعوب البلاد الإسلامية الأخرى ، فكان من نتائج هذه الغيرة الدينية التي يمتاز بها الشعب المسلم الهندي ومبادرته إلى قبول تحديات التبشير والاستشراق التي وجهت إلى شبه القارة الهندية ، بعد قيام الحكم الإنجليزي المسيحي ، أن قام كثير من العلماء بتأليف أفضل الكتب وأقواها باللغة العربية والأردية والإنجليزية في الرد على ما كتب المستشرقون في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية ، كما قاموا بتأسيس مراكز الأبحاث العلمية للرد على الأعمال الاستشراقية ، ومن ثم نستطيع أن نقول إنه قد بدأت أولى الكتابات التحليلية النقدية لكتابات المستشرقين في شبه القارة الهندية .

ومن أشهر علماء الهند آنذاك السيد أحمد خان (١٣١٥هـ/١٨٩٨م) الذي نهض للرد على المستشرق السير وليم ميور (Sir William Muir 1234-1322/1819-1905) ، الذي كتب عن السيرة المحمدية بعنوان : (life of mohamet) أي حياة محمد ، وكان فيه تحامل على السيرة النبوية ومسخ لبعض الحقائق ، ولم يتمالك السيد أحمد خان الذي كان من أكبر الدعاة إلى التعليم الحديث الغربي ، وكانت بينه وبين الحكم الإنجليزي ورجاله صداقة حميمة وثقة متبادلة ، فسافر إلى لندن في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) لجمع المواد العلمية ، وباع لذلك بعض أثاثه ومتاعه ، وألف كتابه المشهور "خطبات أحمدية" الذي هو من أحسن كتبه ، ولعلها كانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه في العالم الإسلامي .

أما شبلي النعماني (١٢٧٤- ١٣٣٣هـ/١٨٥٧- ١٩١٤م) فكان من أوائل العلماء في الهند الذين انتبهوا على دسائس المستشرقين الحاقدين على الإسلام والناقمين على النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ، وقد اطلع العلامة شبلي على مؤلفاتهم اطلاعاً عميقا ، ويشهد على ذلك أنه ذكر في كتابه "سيرة النبي" قائمة لمؤلفاتهم بلغ عددها سبعة وثلاثين كتاباً .

وقد تمكن شبلي النعماني من تكوين الجبهة القوية للرد على الأعمال الاستشراقية ، ذلك بعد ما قام بنشر سلسلة مشاهير الإسلام ؛ بحيث اعتبر أفضل وسيلة للرد على أباطيل المستشرقين حول الشخصيات الإسلامية والثقافة الإسلامية ، فأخرج منها : المأمون (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م) ، والنعمان أي سيرة الإمام أبي حنيفة (١٣٠٩هـ/١٨٩١م) ، والفاروق أي سيرة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) ، والغزالي (١٣١٩هـ/١٩٠١م) ، وسوانح مولانا روم (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، وسيرة النبي (١٣٢٩هـ/١٩١١م) .

فقد كان لكتابات علماء الهند فضل كبير في إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد والمقررات الدينية وبالحضارة والثقافة الإسلامية ، وبتاريخهم الزاهر ، وبلغتهم وآدابهم ، وفي إحياء الاعتداد بالنفس والثقة بالذات ، وإزالة "مركب النقص" الذي أحدثته الهزيمة في الصراع مع الاستعمار الإنجليزي في عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م ، وأصلته الثقافة الغربية والغزو الفكري الاستشراقي .

هذا ، وسيتضمن البحث النقاط التالية :

١- **المبحث الأول :** تعريف الاستشراق من حيث النشأة والتطور والأهداف.
٢- **المبحث الثاني :** تاريخ الاستشراق في شبه القارة الهندية .
٣- **المبحث الثالث :** استعراض إجمالي لأهم الكتابات العربية والأردية والإنجليزية لعلماء الهند ضد الأعمال الاستشراقية .
٤- **المبحث الرابع :** تعريف موجز لأهم مراكز الأبحاث التي أنشئت لحفاظ التراث الإسلامي في شبه القارة الهندية .
٥- **المبحث الخامس :** تعريف موجز لكل من السيد أحمد خان وشبلي النعماني وأعمالهم الثقافية .
٦- **الخاتمة وأهم النتائج .**
٧- **قائمة المصادر والمراجع .**

المبحث الأول :

تعريف الاستشراق : الاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق ، ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم ، ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي ، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته وعادات وتقاليد ، ولقد أسهم هذا

التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عموماً وعن العالم الإسلامي خصوصاً ، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما (١) .

نشأة الاستشراق : أما نشأة الاستشراق فمن الصعب تحديد بدايته ، إذ أن بعض الباحثين يعودون به إلى القرون الأولى الميلادية ، بينما يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري ، وذهب البعض للقول أنه ظهر عند الرهبان الذين قصدوا الأندلس أيام الدولة الإسلامية لها ، واشتهر من هؤلاء الراهب الفرنسي جربرت الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام ٣٨٨هـ/٩٩٩م ، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين ؛ حيث بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والنصرانية ، وأيا كان الأمر فإن حركة الاستشراق قد انطلقت بباعث ديني يستهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحية (٢) .

ميدان الاستشراق : يرى الدكتور مصطفى السباعي أنه قد بدأ الاستشراق من خلال دراسة اللغة العربية والإسلام (٣) ، وانتهى - بعد التوسع الاستعماري الغربي في الشرق – إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته ، وإن كانت العناية بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية هي أهم ما يعني به المستشرقون حتى اليوم، نظرا للدوافع الدينية والسياسية التي شجعت على الدراسات الشرقية (٤) .

دوافع الاستشراق وأهدافه : ليس هناك عامل واحد أو عاملان في تفسير الدوافع والأهداف التي حفزت المستشرقين إلى دراسة تاريخ الإسلام وحضارته : ذلك لأن الاستشراق ظاهرة تاريخية معقدة تنوعت دوافعها عبر القرون وتباينت حسب المراحل التاريخية وربما غلب عامل واحد أو أكثر في مرحلة معينة على غيره من العوامل ، ولكن الحقيقة تبقى واضحة وهي أن جملة العوامل اشتركت في تحديد معالم الاستشراق ومنطلقاته ، ولعل من الدوافع والأهداف البارزة في تحفيز المستشرقين ما يلي :

١- **الهدف الديني التبشيري :** كان هذا الهدف وراء نشأة الاستشراق ، وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة ، وهو يتمثل في :

❖ التشكيك في الشريعة الإسلامية وفي صحة رسالة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى ، والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول الحبيب عليه الصلاة والتسليم ، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته (٥) .

❖ التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه ، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوتهم وتنأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتبار المصدر الأساسي لهذا الدين ، والتقليل من قيمة الفقه

الإسلامي واعتباره مستمداً من الفقه الروماني ، والمحاولة الجادة في النيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربية الفصحى ، وإرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلاً من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر، والعمل على تنصير المسلمين ، ولقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوربا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحروب الصليبية (٦) .

٢- **الهدف السياسي والاستعماري :** لقد انهزمت القوات الأوربية في الحروب الصليبية أمام القوات الإسلامية ، والتي كانت أصلا حروبا دينية للقضاء على الأديان غير النصرانية والإسلام منها بالدرجة الأولى ، ولم يكن بيأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب والمسلمين ، ولكن بثوب جديد ألا هو التوجه فيها إلى دراسة الدين الإسلامي والتاريخ الإسلامي الذي أثر في توصية الحياة الإسلامية وما يسودها من عادات وتقاليد ، ويحكمها من قيم وأخلاق ، وكان الهدف الأساسي من ذلك هو التمهيد للاستعمار الزاحف في ذلك الوقت حتى استطاعوا تمهيد الطريق من خلال الدراسات الإسلامية والتاريخية والإنسانية للمستعمرين للتغلب على الشرق العربي والإسلامي سياسيا وثقافيا واجتماعيا ، كما قدموا الدراسات القيمة للمستعمرين للتعامل مع الشعوب المغولية المنهوبة ، على ضوء ما عرفوه عنها ، وفي هذه الفترة كانت جميعات الاستشراق ومؤسساته ومعاهده تتبع وزارات المستعمرات في بعض الدول الأوربية ، مما يؤكد الهدف من هذه المرحلة (٧) .

٣- الهدف التجاري : كان هذا الهدف جزءاً من الهدف السياسي والاستعماري والديني ، فقد كانت المؤسسات التجارية والإدارات الرسمية وكذلك الملوك في أوربا يدفعون الأموال الطائلة للرحال المستشرقين من أجل معرفة البلاد الإسلامية وكتابة تقارير عنها ، ذلك للقضاء على التجارة المحلية والصناعة المحلية التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين ، ذلك لتضعيف هذه الدول اقتصادياً ثم سياسيا (٨) .

٤- الهدف العلمي الخالص : لقد اتجه بعض المستشرقين إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة الخالصة ، وقد وصل معظم هؤلاء إلى الإسلام ، ودخل فيه ، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف ، فجاءت دراساتهم وأبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم بالنسبة للجمهرة الغالبة من المستشرقين (٩) .

المبحث الثاني :

حركة الاستشراق في الهند : بلاد الهند منذ القدم في نظر الأوربيين موطن الثروة و المال ، و كانوا دوما يتكالبون عليها بسبب السماع عن خيراتها و ثرواتها (١٠) ، وقد زادت معرفتهم بالبلاد من خلال التجار ورحلاتهم وأشهرهم "ماركوبولو" (١١) الذي ساح في الهند في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي (١٢) .

كان البرتغاليون أول من غزا الهند من الأوربيين ؛ ذلك في مستهل القرن العاشر الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، واستطاعوا القضاء على السيادة العربية على التجارة البحرية (١٣) كما استطاعوا بإنشاء وكالات تجارية عديدة في السواحل الهندية الغربية الجنوبية ، وكان هدف البرتغاليين منذ وصولهم إلى السواحل الهندية التحكم والسيطرة على الموانئ المهمة حتى تزدهر التجارة البرتغالية البحرية باحتكار التعامل التجاري مع السلاطين الهنود دون غيرهم ، والدعم الكامل للعناصر التنصيرية لنشر الديانة المسيحية (١٤) .

ثم جاء دور كل من الهولنديين ، والفرنسيين ، والبريطانيين ؛ ذلك في العصر المغولي خصوصا منذ بداية عهد السلطان أكبر (٩٦٣- ١٠١٤هـ /١٥٥٥- ١٦٠٥م) ، ثم في عهد ابنه جهانغير (١٠١٤- ١٠٣٧هـ/١٦٠٥- ١٦٢٧م) ، وفي عهد حفيده شاهجهان (١٠٣٧- ١٠٦٩هـ/١٦٢٧- ١٦٥٨م) ، لتوطيد العلاقات التجارية وبدأت توافد الرحال المستشرقين إلى الهند مع الوفود الرسمية ، لتسجيل كل ما يتعلق بالحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية (١٥) .

ولما جاء عهد السلطان أورنغ زيب عالمغير (١٠٦٩- ١١١٨هـ/١٦٥٩- ١٧٠٧م) ، فكان قد تغلب الإنجليز على المنافسين من الهولنديين والفرنسيين والبرتغاليين ، وحصلوا على الفرمانات الملكية لتنشيط التجارة على الموانئ الهندية كافة ، ذلك من خلال الشركة الهندية الشرقية التي بدورها كسبت أموالا طائلة من التجارة الهندية خصوصا منذ ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م إلى عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م (١٦) .

لم تقدر الدولة المغولية آنذاك خطورة هذه الشركة الهندية الشرقية لأنها في عهد السلطان المذكور أعلاه كانت في أوج عزها وسلطانها وبطشها ، ولم يكن يجول بخاطر السلطان أورنغ زيب المستشرق الرحالة تهومس رو (Thomas Roe) في كتابه الذي نشر بعنوان : (The Embassy of Sir Thomas Roe to the Court of the Great Mogul 1615-1619) ، وقد اهتم هذا المستشرق الرحالة بتقديم المعلومات عن الدولة وتاريخها وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، ثمة مستشرق رحالة آخر الذي زار الهند في ذلك الوقت هو جون دي ليت (John de Laet) هولندي الجنسية الذي كتب كتابه باسم

(De Imperio Magni Mogolis, sive India Vera Commentarius e Variss auctoribus congestus) : ، قام بنشره المستشرق في ليدن عام ١٠٤٠هـ/١٦٣١م ، ويعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة لدراسة الجوانب السياسية والحضارية في عهد كل من السلطان أكبر وجهانغير وشاهجهان ؛ حيث دون المستشرق المذكور أحداثا إلى عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م (١٧) .

٣- أما في عهد السلطان شاهجهان وأورنغ زيب فزار الهند كثير من المستشرقين وأشهرهم ، الرحالة الفرنسي الطبيب برنيئر (ت١٠٩٩هـ/١٦٨٨م) الذي دون رحلته باللغة الفرنسية تحت عنوان : (Travels in the Mugal Empire) ، الذي حضر إلى الهند في نهاية عهد السلطان شاهجهان ، والرحالة الإيطالي منوجي (ت١١٢٩هـ/١٧١٧م) ، وكتب كتابه في ثلاثة أجزاء بعنوان : (Storia do Mogor) ، ومنهم الرحالة الكسندر هاملتن الإنجليزي (ت١١٤٥هـ/١٧٣٣م) الذي كان يعمل كتاجر تابع لشركة الهند الشرقية ، وتجول في الهند كلها وسجل المعلومات الدقيقة التي لا نجدها عند المستشرقين الرحال الآخرين ، نشر كتابه بعنوان : (A new account of the East Indies) علما أن هؤلآء الرحالة والمؤرخين قضوا فترة طويلة في العهد العالمغيري ، وجابوا البلاد مع المعسكر السلطاني شمالا وجنوبا .(١٨) .

(للبحث صلة)

---

(١) لمزيد من المعلومات عن تعريف الاستشراق راجع الكتب التالية : فاروق عمر فوزي : الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى) دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية و وجهة النظر الأوربية ، ط/المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع – عمان ، الأردن ١٩٩٨م : ص/٢٥- ٣٠ ، محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط/دار المعارف – القاهرة ١٩٩٧م : ص/١٨ ، الدكتور سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، ط/دار المعارف – القاهرة ١٩٨٠م : ص/٣٤ ، (Edward Said: Orientalism, Routledge and kegon paul, p.London 1978, Pp.1-6) .

(٢) لمزيد من المعلومات راجع الكتب التالية : مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ط/المكتب الإسلامي – بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م : ص/١٣- ١٥ ، يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين) ، نقله عن الألمانية عمر لطفي العالم ، ط/٢ دار المدار الإسلامي - بيروت ٢٠٠١م ، تمهيد : ص/١٢- ١٤ .

(٣) يرى بعض الباحثين أنه بعد ما اتصل الأوربيون بالمسلمين في الأندلس واطلعوا على تقدم المسلمين العلمي فرأوا أن ينقلوا علوم المسلمين إلى لغاتهم ، وفعلا كانت قرطبة وغيرها من المراكز العلمية الإسلامية مثابة لهؤلآء الوافدين الذين استشرقوا ونهلوا من علوم المسلمين ما كان زادا لأوربا في نهضتها ، فكان الغرض في هذه المرحلة هو الاستفادة من علوم المسلمين، راجع عبد العظيم الديب : مقاله "المستشرقون والتاريخ" نشر في كتاب الإسلام والمستشرقون، ط/دار المصنفين أكاديمية شبلي النعماني ، أعظم كراه – الهند ١٩٨٢م : ص/١٣٩ .

(٤) راجع مصطفى السباعي : مرجع سابق : ص/١٥ .

(٥) يقول بعض الباحثين : إنه "قد نشط اللاهوتيون الأوربيون في ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام ، وراحو ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه الحبيب عليه الصلاة والتسليم ، وزعموا فيما زعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة ، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام ليس إلا صنما أو إله قبيلة أو شيطانا ، وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين ، ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين في ذلك الزمان ..." راجع محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : ص/٢١- ٢٢ .

(٦) يقول الدكتور أنور الجندي نقلا عن الدكتور عمر فروخ : "إن محاولة المستشرقين إنما تهدف ألا يصل الإسلام صحيحا إلى أهل الغرب فيؤمنوا به ، فهم يعملون على رد الإسلام وتشويهه بتقديمه مهلهلا ، وإن كتاباتهم مشوهة وأحكامهم مزيفة ، قوامها الجهل والسطحية والتعصب ، وإنهم يهدفون إلى اقتناص الحجج الغالطة لكي تقدم إلى المبشرين حتى يستغلوها في الجدل" ، راجع أنور الجندي : مقالة : "المستشرقون والإسلام" نشر في كتاب : "الإسلام والمستشرقون" ، ط/دار المصنفين أكاديمية شبلي النعماني ، أعظم كراه – الهند ١٩٨٢م : ص/١٠٠ لمزيد من التفصيل حول هذا الهدف راجع مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون : ص/١٦ .

(٧) لمزيد من التفصيل راجع الكتب التالية : مصطفى السباعي : مرجع سابق : ص/١٧- ١٨ أيضا فاروق عمر فوزي : الاستشراق والتاريخ والإسلامي : ص/٣٤ ، عبد القهار عبد الواحد : الاستشراق والدراسات الإسلامية ، ط/دار الفرقان – عمان ٢٠٠٠م : ص/٢٩ .

(٨) فمثلا الرحالة المستشرق (J.G.Lorimer) قوردون لوريمر ، الذي كلفته الحكومة البريطانية في الهند إعداد موسوعة تاريخية وجغرافية وإحصائية باللغة الإنجليزية عن منطقة الخليج العربي ، فأخرج كتابا ضخما في ستة أجزاء وسماه : (Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia) ، (دليل الخليج) ، حيث قام بالإشراف عليها وإعدادها ما بين عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م إلى عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م ، حول الهدف الاستعماري ، راجع مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون : ص/١٨ أيضا علي بن إبراهيم الحمد النملة : الاستشراق والدراسات الإسلامية ، ط/مكتبة التوبة - الرياض عام ١٤١٨هـ/١٩٩٨م : ص/١٤٠ وما بعدها .

(٩) لمزيد من المعلومات حول هذا الهدف راجع عبد الله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية (دراسة تاريخية لآراء وات –بروكلمان- فلهاوزن مقارن بالرؤية الإسلامية ، ط/المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ص/١٨ وما بعدها .

(١٠) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (٧٠٣- ٧٧٩هـ/١٣٠٤- ١٣٧٧م) هو أول رحالة عرّف الهند من خلال كتابه : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، ليست للعرب فقط إنما للأوربيين أيضا عن طريق الأندلس ، طبيعتها وسكانها ، وعاداتها وتقاليدها ، وما بها من خيرات متعددة ، وحين تعرف الغرب على ما كتبه : "ابن بطوطة" عن الهند ، طمعوا في السفر إليها والاستفادة من خيراتها ، وساعدت على ذلك الظروف السياسية والاقتصادية والدينية في أوربا آنذاك ، راجع السيد سليمان الندوي : انتخاب مضامين ، مرتبه صباح الدين عبد الرحمن ، ط/الأكاديمية الأردية بلكناؤ – الهند ١٩٨٥م : ص/١٢٩- ١٣٠ .

(١١) http://www.britannica.com/EBchecked/topic/468139/Marco-polo.

(١٢) The travels of Marco Polo the Venetian with and Introduction by John Masefield, London, 1908, P.318-319

(١٣) راجع لمزيد من التفاصيل جمال الدين الشيال : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ط/مكتبة الثقافة الدينية ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م – الإسكندرية ، تحت عنوان : "مصر وطريق الهند في القرنين السادس عشر والسابع عشر : ص/١٢٦- ١٣٠ .

(١٤) زين العالدين المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين ، حققه وقدم له وعلق عليه أمين توفيق الطيبي ، ط/كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م : ص/١٨ ، For more information about them see Frederick Charles Danvers: The Portuguees in India being a history of the Rise and Decline of the Easern Empire, (vol.2) London 1894.

(١٥) لقد حضر "جون نيوبري" الإنجليزي مبعوثا من جانب إليزابيث ملكة بريطانيا : وذلك في شهر محرم عام ٩٩١هـ/الموافق فبراير ١٥٨٣م ، ثم حضرت سفارة إنجليزية في عهد السلطان جهانغير برئاسة "وليام هوكنز" في عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م ، وقد استقبل السلطان هذا الوفد الدبلوماسي بترحيب حار ، وأبقى هذا الوفد في (آغرا) في ضيافته ، وتمت معه لقاءات رسمية كثيرة ، وقد سمح السلطان جهانغير بفتح المصانع والشركات لهم مع إعطاء كافة التسهيلات التجارية بمقتضى الرسالة التي جاءت من جانب ملك بريطانيا جيمس الخامس إلى السلطان جهانغير ، لمزيد من التفصيل راجع الكتب التالية : Robert Orme (1728-1801): Historical Philip Anderson: The English in Fragments of the Mogul Empire P.319 Western India: Being the Early History of the Factory at Surat, Bombay, and the Subordinate Factories on the Western Coast India, 1854, P.4-5-6/J.N. Das Gupta: Begal in the sixteenth Century, P.100, The University of Calcutta, 1914.

(١٦) S.R.Sharma: The Crescent in India , A study in Medieval History, Part2, P.578.

(١٧) Vincet Arthur: Akbar the Great Mughal, Pp.350-351.

(١٨) بسبب أهمية أعمال هؤلآء المستشرقين لدى الغرب قام بنقلها لفيف من المستشرقين إلى اللغات الأوربية ، لمزيد من المعلومات راجع رسالة الباحث الفقير : "الأوضاع السياسية والحضارية لدولة المغول في الهند في عهد السلطان أورنغ زيب" ، نال بها درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الشرقي من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ٢٠١٠م .

❖❖❖

من كنوز القرآن الكريم

مفردات القرآن

(٤١)

للعلامة السيد سليمان الندوي

(١٨٨٤-١٩٥٣م)

جمع وترجمة : محمد فرمان الندوي

مشاء بنميم :

إن عمل النمام أن يحدث بين رجلين الشقاق بذكر أقوال صحيحة وكاذبة، ويستحكم أمره ، فإن أصحابه يذهبون إلى الناس ويوصلون إليهم كل ما لديهم ، حتى ينفجر الرجل غضباً ويكره الرجل الآخر كراهة شديدة، قد ذكر القرآن الكريم النمام ضمن الرجال الذين يوثق بقولهم ، يقول الله عزوجلّ : مشاء بنميم ، فقرر هذا النظام أن رجلاً إذا أتى إليه بخبر فعليه أن ينظر من يأتي به ، فإذا لم يكن مؤمناً صادقاً فلا عبرة بقوله ، فلا قدر الله أن يثق المرء بقوله ثم يباشر عملاً يتأسف عليه ، قال عزوجلّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ❖ فَتَبَيَّنُوْا أَنْ تُصِيْبُوْا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ❖ فَتُصْبِحُوْا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِيْنَ) {الحجرات/٦} .

اللافت للنظر في هذه الآية أن الله تعالى سمى الرجل الذي ينمي الأقوال الكاذبة فاسقاً ، وإن هذه السيئة تكون عامة لإحداث الفجوة بين رجلين ، بل بين الأقارب والأحبة،لذلك قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة (مسند الإمام أحمد بن حنبل،رقم الحديث/٢٧٥٩٩).

قال بعض المفسرين : إن القرآن الكريم ركز على تسمية زوجة أبي لهب حمالة الحطب ، لأنها كانت تنمي القول إلى الآخرين ، وكان بعض الناس يسترقون السمع ، ثم يبلغونه إلى الآخرين ، سمي أمثال هؤلآء الناس بالقتاتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة قتات (صحيح مسلم/٣٩٥) .

إن الوشاية نوع من إثارة الفتنة ، بحيث تكون نتائجها وخيمة ، وتارة يصل الإنسان بها إلى القتل وسفك الدماء ، وهي جماع كل سوء ، ويأتي في إطاره الغيبة والبهتان والتجسس والكذب والخداع والنفاق وغير ذلك من أنواع سوء التعامل المختلفة (١)

الغيبة :

تهدف الشريعة الإسلامية إلى أن تكون أعراض المسلمين مصونة ،

وتكون علاقات الناس طيبة ، فبالنظر إلى ذلك فرض الإسلام الحظر على سوء التعامل مع المسلمين إذا أصيبوا به ، وقد ذكر الله هذه السيئات في سورة الحجرات : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ❖ عَسَى أَنْ يَّكُوْنُوْا خَيْراً مِّنْهُمْ ❖ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَّكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ❖ وَلَا تَلْمِزُوْا أَنْفُسَكُمْ ❖ وَلَا تَنَابَزُوْا بِالْأَلْقَابِ ❖ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوْقُ بَعْدَ الإِيْمَانِ ❖ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ ❖ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ ❖ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اجْتَنِبُوْا كَثِيْراً مِّنَ الظَّنِّ ❖ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَّلَا تَجَسَّسُوْا وَلَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضاً ❖ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّأْكُلَ لَحْمَ أَخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْهُ ❖ وَاتَّقُوْا اللَّهَ ❖ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيْمٌ) {الحجرات/١١- ١٢} .

الغيبة هي ذكر الإنسان أخاه في غيبوبته ، وليست الغيبة مقصورة على اللسان فقط ، بل تصدر الغيبة من اليد والرجل والعين ، حتى محاكاة رجل ، مثلاً أن رجلاً كان أعرج ، فتماشي الإنسان متعرجاً لإبداء عيبه استهزاءا به كان نوعاً من الغيبة ... وكذلك كشف عورات الناس بإشارة من العين من الغيبة ، وقد ذكر القرآن في آيات كثيرة هذه الطرق المستورة : قال الله عزوجلّ: (هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيْمٍ) {القلم/١١} ، وقال : (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) {الهمزة/١} بين أهل القواميس معنى هاتين الكلمتين على ما يأتي :

فالهمز هو ذكر السوء جهراً ، واللمز : ذكر السوء سراً

الهمز : ذكر السوء بإشارة اليد ، واللمز : الاغتياب من اللسان .

الهمز : ذكر سوءات نسب الناس خاصة .

الهمز : من اللسان ، واللمز : من إشارة العين .

الهمز : إيذاء الأصدقاء بألفاظ سيئة .

اللمز : ذكر الأحبة من إشارة العين واليد والرأس والحاجب .

اتضح من هذا أن دائرة الغيبة واسعة إلى حد كبير (٢) .

سوء الظن :

سوء الظن نوع من الأوهام ، وتكون ثمرته أن سيئ الظن ينظر في كل شئ سوءً ، ولا يدور بخلده حسن النية ، وهو ينسب إلى الآخرين الأقوال الكاذبة ، ويظن الآخر مثل ذلك ، فيتحاشى عنه ، ويحدث البغض والعداوة ، لذلك أكد الله تعالى على الابتعاد من هذا السوء ، قال الله عزوجلّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اجْتَنِبُوْا كَثِيْراً مِّنَ الظَّنِّ ❖ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) {الحجرات/١٢} (٣) .

البخل :

البخل من الأمراض الأساسية ، وهو أساس كثير من الأخلاق الدنيئة ، فالخيانة والفساد الخلقي ، وعدم الاستحياء والغلظة وسوء التعامل والدناءة تنشأ منه ، ويتفرع منه الحرص والطمع وضيق النظر والجبن والخسة وغيرها من

الأمراض الأخرى (تجمعها كلمة الشـح) ، فلما جاء الإسلام فقضى أول ما قضى على أساس هذا المرض بعد الكذب ، واعتبر إطعام الجائعين وإلباس العراة وإعطاء المساكين وإعانة المديونين لازماً للمسلمين ، فمجموعة هذه الواجبات تتلخص في الزكاة ومستحقيها ، وهي أكبر فريضة بعد الصلاة ، حينما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها حال قدوم جبرئيل عليه السلام إليه ، قالت خديجة نظراً إلى هذا الدلائل : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق (صحيح البخاري ، رقم الحديث/٣ – عن عائشة) .

تدبر أن الصفة التي تحمل أهمية كبيرة بين هذه الصفات البدائية للنبوة أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كان لا يبخل ، وإلا ما كانت هذه الصفات للجود من خصائص النبوة .

البخل من الأمراض التي تنتج من عدم الإيمان الكامل بجزاء الأعمال ، لأن الذين لا يؤقنون بجزاء الأعمال لا يحملون دافعاً على إنفاق مالهم الذي كسبوه من جهدهم في سبيل الله تعالى ، إن سورة المدثر من السور التي نزلت في بداية الإسلام ، ذكر فيها حوار لأهل جهنم أنهم حينما يسألون : لماذا أدخلوا في جهنم يقولون : إنهم كانوا لا يصلون ولا يطعمون المساكين وينتقدون الدين الإلهي ، وذلك أنهم لا يؤمنون بيوم الدين ، قال الله عزوجلّ : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ❖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ❖ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ❖ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ❖ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) {المدثر/٤٢- ٤٥} فظهر من هذا أن البخل يصل بالإنسان إلى جهنم وكان ذلك نتيجة عدم الإيمان بجزاء الأعمال ، هذه النكتة أعيدت في سورة الماعون التي هي من السور المكية ، قال الله عزوجلّ : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ❖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ❖ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) {الماعون/١- ٣} .

إن أكبر مثال للبخل في القرآن هو قارون الذي وردت قصته في سورة القصص ، قال الله عزوجلّ : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ❖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ❖ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ❖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ... أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا) {٧٦- ٧٨} وكان قارون العصر المحمدي أبا لهب ، فقيل عنه : (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) {اللهب/٢} (٤) .

---

(١) سيرة النبي : ج/٦ ، ص/٢٩١- ٢٩٥ . (٢) سيرة النبي : ج/٦ ، ص/٢٩٦- ٢٩٩ . (٣) سيرة النبي : ج/٦ ، ص/٣٠٠ . (٤) سيرة النبي : ج/٦ ، ص/٣٠٢- ٣٠٨ .

صفحة الشباب والطلاب

ما أحوجنا إلى الإخلاص

السيد إقبال أحمد الندوي الكشميري
الباحث بالجامعة الملية الإسلامية (دلهي الجديدة)

للإخلاص أهمية كبيرة في الإسلام وفي أعمال المسلمين ، وهي صفة من الصفات التي توصل الإنسان إلى قمة المجد والكرامة والفلاح والسعادة وتدعوه إلى الحياة الخالدة والنجاة من عذاب الله الأليم ، وهي صفة من الصفات التي اعتنى بها رُسل الله ونبينا الآخر محمد صلى الله عليه وسلم اعتناء تاماً : كما قال : "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه" .

إن أعمال العباد لا تقبل عند الله إلاّ أن تكون خالصة لله عزوجلّ كما ورد في حديث صحيح عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داؤد والنسائي : "إن الله لا يقبل العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه" .

فالإخلاص له دور كبير في كل مجال من مجالات الحياة الإسلامية وفي تنمية الشعور الإسلامي وبه كسر المسلمون السابقون طلاسم العقل ، وفكوا سلاسل الكون وحطموا أصنام المادية وهزموا العدو وملكوا الأرض شرقا وغرباً وشمالاً وجنوباً .

وبالإخلاص يستطيع المؤمن أن يحرز النجاح في الدنيا والآخرة وبقوة الإخلاص والاحتساب تغلب الروحانية على المادية والفقر على الغنى ، والعدل على الظلم والسلامة على الخوف .

لأنه يحمل دعوة خالدة حيّة ورسالة للروح والقلب ويملك قوة أخلاقية تراقبها في النور والظلام وتكسب به النشاطات الإسلامية القبول والانتشار ، وتأتي بنتائج مرجوة ويحصل به العاملون في الفكر والدعوة والتربية والتوعية الإسلامية الفوز في أعمالهم وتملك الدعوة الإسلامية النفوس والقلوب والأعصاب، ولكننا اليوم قد تجردنا عن هذا العنصر المهم وتسرب إلى نفوسنا وأعمالنا الرياء والسمعة الكاذبة والتنافس في حطام الدنيا وأقوالنا تتعارض مع أعمالنا فانقبلت القيم والمعايير وتغيرت المقاييس وأصبحت قلوبنا فارغة من روح الإخلاص والاحتساب ، وتعوض عنها الرياء والكبرياء والبغضاء والشحناء وازدادت بيننا النزاعات والانحلال الخلقي والاضطراب الفكري ، ويواجه

العالم الإسلامي الذل والخسف والصغار وتعوضت القلوب عن رعبها من المسلمين الجرأة عليهم ، ومما يدل على ذلك ما ترتكبه أمريكا وإسرائيل في بلدان المسلمين ، ولا سيما الأرض المقدسة والعراق وأفغانستان من سفك دماء المسلمين الأبرياء وانتهاك الحرمات وتدمير المؤسسات والجامعات .

واستولى علينا اليأس والتشاؤم رغم ضخامة المنظمات والإكاديميات الإسلامية والجمعيات الإسلامية العاملة في مجال النهوض بالأمة الإسلامية ، وكذلك فينا كتاب وأدباء وباحثون ومحققون يقدمون إنتاجاتهم الفكرية والعلمية والأدبية ولكن بالرغم من هذه الجهود الجبارة والأعمال العظيمة لا يتغير الوضع ولا تظهر نتائج مطلوبة بل يزداد الوضع سوءً يوماً فيوماً فما هو السبب ؟ فإن سبب هذه النكسات هو فقدان روح الإخلاص حتى لم يبق فينا حمية الجهاد والدفاع عن الدين لأننا قد ألقينا أنفسنا في مستنقعات المادية التي شيدها الغرب وأعوانه للمسلمين ، فإن المادية تميت روح الإخلاص في قلوبنا وبقى الأقل من القليل منا الذين تخلصوا من هذا الخطر ورغبوا عن الملذات الدنيوية الفانية لأجل الإخلاص في دين الله سبحانه وصدق عليهم قول نبيا صلى الله عليه وسلم : "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض" (رواه ابن ماجة) .

فنحن المسلمين اليوم في أمس حاجة إلى علماء ودعاة مخلصين لا يرجون في أعمالهم إلا ابتغاء مرضاة الله وعليهم أن يبذلوا جهودهم النفسية والمالية لإعادة الإسلام إلى مكانته اللائقة به ومقاومة قوات العالم المسيطرة في مشارق الأرض ومغاربها ومن الواجب عليهم أن لا يكون قيامهم بمسئولية الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله إلا بالنيات الخالصة لكي لا تكون أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا .

ولنعلم أن أعداء الإسلام ما زالوا ولا يزالون يبذلون أقصى جهودهم في سبيل إطفاء نور الله بأفواههم وإبعاد المسلمين عن عقائدهم الإسلامية الثابة فعلى المسلمين ولا سيما العلماء والدعاة أن يتصفوا بصفة الإخلاص والتضامن والتضحية وتقوى الله على كل حال نزل بهم من أمر الله ، فإن تقوى الله أفضل العدة وأبلغ السلاح وأقوى القوة ، كما يجب على المنظمات والجميعات والمؤسسات الإسلامية أن تكون نشاطاتها وبرامجها مقترنة بالإخلاص والاحتساب وإلا فتذهب جهودها سدى وتزداد الأمة تمزقا وصراعا ، فالحاجة ملحة إلى إيجاد روح التضامن والإخلاص في جميع مجالات الحياة .

ندعو الله أن يجعلنا من الذين اختارهم لدينه فأخلصوا لله، ونسأله أن يوفقنا إلى الإخلاص ويهدينا سواء السبيل . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

إلى رحمة الله تعالى

فضيلة الشيخ المربي صفي الله خان الجلال آبادي في ذمة الله تعالى

قلم التحرير

أفادت الأنباء بوفاة المربي الجليل فضيلة الشيخ صفي الله خان الجلال آبادي نجل العالم الرباني الجليل والمربي الكبير فضيلة الشيخ مسيح الله خان الجلال آبادي رحمه الله تعالى ، وهو الذي كان قد أنشأ جامعة إسلامية كبيرة باسم مفتاح العلوم في بلدة "جلال آباد" بمديرية مظفرنغر بولاية أترابراديش في أنشئت عام ١٣٥٧هـ ، بتوجيه من شيخه التهانوي رحمه الله ، وكان من خلفاء العالم الكبير حكيم الأمة فضيلة الشيخ العلامة أشرف علي التهانوي في الدعوة والإرشاد والتربية، ثم لما ارتحل إلى دار الآخرة في ١٢/نوفمبر عام ١٩٩٢م ، خلفه فضيلة الشيخ مولانا صفي الله نجله الكريم في جميع أعماله ، وقد لبي نداء ربه صباح الجمعة في أحد المستشفيات في دلهي ، حيث كان يعالج .

حدث ذلك في اليوم الثامن من شهر ربيع الثاني لعام ١٤٣٣هـ ، الموافق ٢/مارس سنة ٢٠١٢م .

تغمده الله تعالى بواسع رحمته ومغفرته ، وأدخله في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

الحافظ محمد صديق المرادآبادي إلى رحمة الله تعالى

ارتحل إلى رحمة الله تعالى الحافظ محمد صديق المرادآبادي يوم الثلاثاء ١٩/من شهر ربيع الثاني عام ١٤٣٣هـ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كانت له نشاطات في مجال السياسة والدين مع جماعة من العلماء الكبار في الجزء الغربي للولاية الشمالية ، وكان عضوا بارزا لجمعية علماء الهند ، وأحد القادة لها ، كما أنه ساهم في سياسة البلاد ، وركز اهتمامه على حل مشكلات المسلمين والبلاد ، وكان موفقا من الله تعالى ، وكان عضو البرلمان الهندي حيث كان يرفع صوته حول القضايا التي تواجه الشعب والبلاد ، وكان يُحبّ سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ويزوره أحيانا في مقر ندوة العلماء في لكناؤ .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وتقبل أعماله في سبيل النهوض بالأمة الإسلامية في هذه البلاد ، وجزاه جنات النعيم ، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان .

والد الشيخ يعقوب الندوي وابن أخيه في ذمة الله تعالى

أخبرنا فضيلة الشيخ الجليل عبد القادر الندوي أستاذ الحديث بدار العلوم لندوة العلماء بوفاة الشيخ إسماعيل والأخ العزيز معاذ أنيس الرحمن في حادث اصطدام شديد مفاجئ ، وذلك في ١٧/فبراير عام ٢٠١٢م يوم الجمعة قبل صلاة المغرب .

كان المتوفى الأول والد فضيلة الشيخ يعقوب الإسلام فوري الندوي أستاذ جامعة إمداد العلوم "بودالي" بمديرية "سامبركانتا" ، أما المتوفى الثاني الأخ معاد أنيس فكان ابن أخ الشيخ يعقوب الذي أول من تخرج من جامعة ندوة العلماء في هذه المنطقة ، ولا يزال مشغولا في عمل الدعوة والتدريس والتبليغ .

ونحن إذ نعزيه على هذين الحادثين ، ونوصيه بالصبر الجميل ندعو الله سبحانه وتعالى أن يكرمهما بدرجة الشهادة ويغفر لهما ، ويجعل الجنة مثواهما .

الضابط الكبير حسن عبد الغفور إلى رحمة الله تعالى

في هذا التاريخ نفسه (١٤٣٣/٤/١٩هـ المصادف ٢٠١٢/٣/١٣م) يوم الثلاثاء ارتحل الضابط الكبير لمجموعة الشرطة في مومبائ عاصمة مهاراشترا ، حسن عبد الغفور ، إنه أصيب بنوبة مفاجئة بالقلب فنقل إلى مستشفى برج كيندي في مومبائ ، ولكن لم يكتب له البرء ، ولبى ندا ربه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان متميزا في أوساط الشرطة الهندية ، بالشعور بالمسئولية ، والأمانة ودقة النظر في الشئون البوليسية ، ولكن ميزته الكبيرة التي غلبت على جميع تميزاته أنه كان لا يتقاضى من الرواتب إلا روبية واحدة كرمز فقط ، لأنه كان من أسرة غنية ، رفيهة البال ، رغيدة العيش ، وقد شهد بأمانته وشعوره بالمسئولية ودقة نظره جميع الأوساط السياسية والاجتماعية على مستوى عموم الهند ، يقال : إنه كان صهر الأستاذ الكبير السيد حامد مدير جامعة عليكراه الإسلامية سابقا .

ونحن حينما نعزيه وأسرة الراحل الكريم بكاملها ، نحيي فيه ميزة الأمانة والمسئولية التي أصبحت كعنقاء المغرب ، وخاصة في أوساط الشرطة وإداراتها اليوم .

رحمه الله وتقبل منه صالح أعماله ، وغفر له زلاته ، وأدخله فسيح جناته ، وألهم الجميع الصبر والسلوان .

البعث الإسلامي
مجلة إسلامية شهرية جامعة
ص ب ٩٣، ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)
الفاكس: ٠٥٢٢ - ٢٧٨٧٧١٠

AL-BAAS-EL-ISLAMI
NADWATUL ULAMA, P.O. BOX. 93
LUCKNOW-226007-U.P.(INDIA)
MOB.091-9415546882
FAX:0091-522,2741221-2741231

رسالة إخوية مهمة

حضرة الأخ القارئ الكريم! حفظ الله تعالى للإسلام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فأتمنى على الله سبحانه أن تكونوا في خير وعافية وصحة جيدة، نشكركم على ما تتابعونه من قراءة: "البعث الإسلامي" وهي مجلتكم ومجلة كل محب للصحافة الإسلامية الهادفة، تصدر من ٥٦ عاما بالاستمرار، وهي تجتاز الآن عامها السابع والخمسين. والحمد لله. ونرجو الله سبحانه أن يوفر لإتمامه جميع الوسائل اللازمة ويجعل التوفيق حليف العمل والعاملين.

لا يخفى عليكم أن المجلة إنما تصدر في ظروف قاسية جداً، وبتكلفة باهظة، ولاسيما بعد تضاعف أجرة البريد فهي بأمس حاجة إلى تعاون كريم منكم، وذلك بتقديم دعم علمي ومادي وشيء من الاهتمام بتوسعة نطاق مشتركين جدد من جملة إخوانكم وأصدقائكم، ولكم منا الشكر الجزيل ومن الله تعالى حسن القبول.

أرجو التكرم بتحويل أي تبرع أو اشتراك للمجلة بواسطة شيك صادر من أحد البنوك باسم:

AL-BAAS-EL-ISLAMI A/C 10863759846 STATE BANK OF INDIA

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم المخلص

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي

مكتب "البعث الإسلامي" مؤسسة الصحافة والنشر)

ندوة العلماء، ص ب ٩٣، لكناؤ - ٢٢٦٠٠٧ (الهند)

بالعنوان التالي:

مكتب "البعث الإسلامي" مؤسسة الصحافة والنشر

ندوة العلماء، ص ب ٩٣، لكناؤ - ٢٢٦٠٠٧ (الهند)